شعراء من أرض عبقر

خوجه

بقلم

محمد العيد الخطراوي

(٢)

من منشورات نادى المدينة المنورة الأدبى

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

حين شرعت فى جمع أصول الجزء الأول من هذا الكتاب « شعراءُ من أرض عبقر » كنت واثقاً من أنه يمكننى الحصول على الحلقات الثلاثين التى تمت إذاعتها بإذاعة الرياض ، ولكننى فوجئت بعد الفراغ من إعداد الجزء الأول والدفع به إلى المطبعة ، بفقدان بعض الحلقات ، كالحلقتين الخاصتين بالشاعرين الكبيرين : حسين سرحان ، وأحمد العربى ، ولضيق الوقت وكثرة مشاغلى من جهة ، وإلحاح بعض الإخوة فى الإسراع بإخراج الجزء الثانى من جهة أخرى ، بادرت إلى إخراجه على هذه الصورة ، آسفاً على التقصير ، معتذراً لأصحاب الحلقات المفقودة ، راجياً أن أتمكن من الكتابة عنهم فى مناسبات أخرى بشكل أوسع وأشمل إن شاء الله .

وسيلحظ القاريءُ فى آخر هذا الكتاب وجود دراسة نقدية سريعة لديوانى « غناءُ الجرح » ، كتبها الشاعر المصري المرحوم الأستاذ عبد الحميد ربيع ، الذي كان منتدباً للتدريس فى الجامعة الإسلامية بالمدينة

المنورة ، كما كان من أنشط الأعضاء المنتسبين لنادي المدينة المنورة الأدبى فى مختلف الميادين الأدبية ، وقد ترددت كثيراً فى إثبات هذه الدراسة ، خشية أن يعتبرها بعض الناس نوعاً من الدعاية والإعلان عن النفس ، ولكن صغر حجم الكتاب بسبب الحلقات المفقودة ثم الوفاء لشخص كاتبها الذي غاله الموت بالمدينة المنورة يوم ٢١ـ٨ـ١٣٩٨ هـ جعلانى أصر على إثباتها بكل دقة وأمانة ، رغم اختلافى مع كاتبها ـ رحمه الله ـ فى بعض ما وصل إليه من أحكام ، وهى على كل حال لا تخلو من فائدة ولا تقصر عن إمتاع أو إبداع .

وكل ما أرجوه أن أكون بتقديم هذا الجزء وصنوه الجزء الأول من « شعراءُ من أرض عبقر » قد قدمت ما يستأهل القراءة ، وما يتناسب مع الجهد المبذول ، شاكراً للذين تحمسوا لطبع الكتاب حماسهم ، ولكل ملاحظ بعد طبعه ملاحظاته . والله الهادي إلى سواء السبيل ،

المدينة المنورة ٣٠ـ٨ـ١٣٩٨هـ المؤلف

محمد العيد الخطراوي

محمد حسن فقي

نحن نلتقى هنا مع شاعر من رحاب مكة المكرمة الطاهرة ، وهو من أبرز أبناء عبقر فى هذه الديار ، ومن أكثرهم تحليقاً فى سماوات الفن والإبداع ، بدأ حياته مدرساً بمدرسة الفلاح بمكة المكرمة ، وتنقل فى الوظائف الكبرى المختلفة ، ولا يهمنا بالطبع أن نتحدث عن هذا الجانب من حياته ، فذلك ليس من شئون الأدب فى شيء ، إلا إذا انعكست آثاره على بعض نشاطاته الأدبية . وليس كذلك الفقى ، ولكنْ هناك أبعاد أخرى مستترة أورثته هذه الحيرة المزمنة والعطش الدائم . ومتاهاتُ الحيرة فى نفسه ضارية لا يكاد ينفك عنها أو تنفك عنه ، يرفدها الشوق والتطلع والضياع ، قلما تجد نفسه مرافئها أو تبلغ الضفاف التى تنشدها ، هو سؤال ملح على شفة الحرف المنغم ، وحركة دائبة على سنان القلم ، لا تعرف السكون ، عديد من الاستفهامات تلوي الأعناق . . . تثير الاهتمام . . . . تحرك الطموح . . . تسأل عن السؤال ، ثم تبقى تلك الاستفهامات تائهة على لظى الرغبة والإلحاح دون

جواب ، والشاعر الشاعر فى نظري هو السؤال الأزلى الجاد ، الذي تطرحه العبقرية على الكون بإصرار ، ليسهم ذلك السؤال فى بعث الحياة فى الضمير الفردي والجماعى ، ولقد كان الفقى فى شعره هو السؤال : . .

وللفقى شعر كثير ، يكون عدة دواوين ، لكن ديوانه المطبوع هو (قدَر ورجُل) ، فحديثنا عنه سيكون من خلال هذا الديوان ، الذي كتب مقدمته الطويلة الأستاذ عبد العزيز الربيع وهى مقدمة حاول فيها أن يحدد كثيراً من مسارات الفقى ، ويجلى قسمات شاعريته . والقاريءُ للديوان يلمس الحيرة والعطش فى كل قصيدة منه ، حيرة فى نفس الشاعر ، نابعة من شقاءٍ نفسى مستور لم يفصح عن مأْتاه ، وعطش دائم إلى الحقيقة والطمأْنينة واليقين . هو نفس تبحث عن نورها . ففى قصيدته التى تحمل هذا العنوان يقول :

قلتُ للأَنجم المضيئةِ حولى

أي نجم يضىءُ ظلمةَ ليْلى ؟

سَرْمديٌّ الظـلام هذي دياجيـ
ـك تراكمن فى فؤادي وعقلى
حنْدسٌ فوق حنْدسٍ أيها الليـ
ـلُ وهولٌ يسير فى إثْر هــول
واغترابٌ يحنّ للدار والأَهــ
ـل فيشْقى بكلِّ دارٍ وأَهــل
ومسيرٌ إذا استراح إلى السيْـ
ـرِ تصدَّى لوقْفه أَلفُ غــل
إنّ فى وحدتى فرارا من النّاس
ولكنه فرارُ . . . المُــدِلِّ
ما الذي أَبتغيه منهمْ سوى الجهـ
ـلِ وحسبي أَنى أَضيقُ بجهلى
ربَّ مستوحِدٍ تجلى له الأُنْـ
ـس ، ومُستصحِبٍ عداه التجلّى
إن روحى لوَ استظلَّ من الشمس
لَيَخْسو الهجيرَ فى كأْس ظل
قد تولّت سعادتى فتجلــ
ـدْتُ ولكن عزّتى لم تُــوَل

حقاً إن أدباءَ العرب فى كل مكان تأثروا بأُدباءِ المهجر وثقفوا أشعارهم ، قد يكون ذلك صحيحاً إلى حد كبير بالنسبة لشاعرنا محمد حسن فقى ، وإن كان هو من مواليد (١٣٣٠ هـ) وقد يكون مجرد إلتقاءٍ .

المهم لدينا أن نقول :

إن هذا النهج الذي تقرؤه فى القصيدة السابقة ونجده فى معظم أشعاره ، هو نفسه الذي نلمسه عند أبى ماضى وجبران وغيرهما من شعراءِ المهجر ، فى شعر التأمل والحيرة والحنين . وهو فى الوقت نفسه صدى لأحلام الرومانسيين .

شاعرنا يحس بالظلمة فى كل ما حوله مع أن النور ضافٍ ، ويشعر بالغربة بين أهله وخلانه ، تماماً كما أحس بها أبو ماضى فى قصيدته التى مطلعها :

جُعت والخبز وفيرٌ فى وطابى

والسنا ضافٍ، وروحى فى ضباب

الليل والغربة والأغلال كلها أشياءُ تضايق الشاعر وتخنق أنفاسه ، وتثقل كاهله ، وتعوقه عن المسير .
إلى أين . . ؟ ذلك ما لا نجد له جواباً . ثم هو يؤثر

الوحدة لأنه لا يلقى لدي الناس جواباً لتساؤلاته ، لكنه ربما ساعدته الوحدة على الوصول إلى برد اليقين ، وهذا يذكرنا بقول ليونارد ديفنشي الإيطالى : « بالوحدة فقط تحصّل على أنبل ما فى نفسك » .

وبعد أن أودع شكاته النجم والليل فى المقطع الأول ، يعود ليناجي الروض فى المقطع الثانى ، والعاصف فى فى المقطع الثالث ، والشاطىء فى المقطع الرابع والشمس فى المقطع الأخير ، تماماً كما يفعل المهجريون حينما يتمازجون بالطبيعـة ويحركون شخوصها ويبثونها شكواهم ، ويتخذون من عناصرها وسيلة للتعبير . يقول فى المقطع الثانى :

قلت للروض ـ والطبيعـةُ تكسوه
بروداً ترفُّ حسنـاً وطيبـاً

عبقري الألحان يشدو بها الطير
غنـاءً عـذْباً ودمعـاً صبيبـاً

وخـرير الغدير ما أروعَ الفتنة
فيـه نجوى . وهمساً حبيباً

قلت للروض : هل تعيد إلى الغبـ
طة قلباً يا روضُ عاش كئيباً ؟
إن نفساً ترى الجديب خصيبــاً
هى نفسٌ ترى الخصيبَ جديباً
وهى نفس تضيق بالحس والمتعة
ما دام نحسُهــا مكتـــــــوباً

تلك هى المأساة الأبدية للفنان . إنه يخلق عالمه ويبنيه من مشاعره وأحاسيسه ويلونه بنبضات قلبه ، فيحيل الصحاري الجديبة إلى مروج خضر يانعة . والصخور الصم الصلبة إلى ينابيع وجداول وأنهاراً ، والدياجير الحالكة إلى آفاق واسعة تتعانق على حواشيها الظلال الحالمة ، كأنما يريد أن يرسم للإنسانية طريقها إلى السادة والحياة الهانئة ، لكنه مقابل ذلك يحمل فى صميمه بذور الشقاء الأبدي ، حين يقدر عليه أن يصبح قلبه المرهف الحساس مسرحاً للألم والعذاب . فلا الأنجم المضيئة ولا الشمس المشرقة ، ولا الظلال الوارفة ولا الرياض اليانعة ولا الينابيع المتدفقة ولا كل ما فى الطبيعة من مرائى الحسن والفتنة والجمال بقادرة

بعد ذلك ، على أن تحيل الدموع فى عينيه إلى بسمة ضاحكة ، ولا النشيج فى قلبه إلى أغرودة مرحة ، ستظل أخشاب قاربه تواصل النحيب إلى الشاطىء المجهول ، وأشلاءُ الأمانىَ تتناثر على جوانبها دموعاً صاخبة وعويلا دامياً .ويظل شاعرنا يرسف فى دهليز حيرته لا يخلص من كهف حتى يتلقفه كهف أكثر ظلمة وأشد غموضاً ، لا تعرف عيناه الشمس ولا تنعم بأشعتها الوامقة .

وللشاعر قصائد تشير إلى صلته بالثقافة العربية العباسية وحسن استفادته منها بحذق وتصرف وتطويع ومهارة ، ففى قصيدته التى عنون لها باسم (جحيم النفس) نجده ينطلق على أجنحة الخيال ، سابحاً فى أغوار النفس ، ممعناً فى الرحلة إلى الأعماق ، فهو فيما يشبه رحلة أبى العلاءُ المعري ودانتى والزهاوي ويصور لنا النفس التى أثقلتها آثامها ثم تحرك ضميرها ، هى قصة إنسان أخذ طريقه إلى الجحيم ، وهو يشعر بالعزة والخيلاءُ ، فتاريخه حافل بالمخازي والشرور ، وشيطانه نفسه اعترف له بأنه موهوب فى الشر ،

متغلغل فى أغوار الخطايا ، أي أنه منحه الثقة ورشحه لزمالته ، يقول الفقى فى مطلع قصيدته مخاطباً نفسه على لسان الإثم :

اسبقينى إلى الجحيم فإنى
سأوافيك من غدي للجحيم
واطلى من سَراتِه أن يكونوا
عند أبوابه قُبَيْلَ قدومى
أخبريهم : أن الزعيم سيأتيـ
ـكم فهُبُّوا إلى لقاء الزعيم
قال شيطانه له وهو يطريه :
لأنت الرجيمُ مولى الرجيم

واستقبل فى الجحيم استقبال الأبطال الفاتحين ، ولعل من أطرف المناظر التى رسمها الشاعر فى جحيمه هذا هو منظر إبليس وهويتحدث إلى أعوانه وأتباعه والمخدوعين به يعزيهم ويخفف عنهم وقوعهم فى العذاب بقوله :

إن الفردوس قد أجدب اليوم فما فيه من ولىٍّ حميم
ولقد جاءنى رسولٌ من الجنة يشكو إلىَّ شكوى العديم

سوف أسقيهمُ الغمام وأهديهم رُخاءً من ناعمات النسم

ثم يدير الشاعر بكرة الشريط ليريناالوجه الآخر لهذا الإبليس المتعالى فى كبرياءٍ كاذبة يعزي أتباعه ويكذب على أهل الجنة ، وهو نفسه فى الواقع أضعف المخلوقات وأشدهم حاجة :

قال هذا ، وصدّ عن وجهه الدامى شُواظاً أهدته ريحُ السموم

وبعد أن يُسدل الشاعر الستار على هذه القصة الفلسفية الرائعة يعلن لنا آخر القصيدة أن الجحيم الذي يقصده إنما هو جحيم النفس ، الذي هو الضمير فيقول :

أيها النفسُ بين جنبيكِ نارٌ
تتلـظى تفوقُ نارَ الجحيـــم
فارحمينى من الضريم فإنِّى
لم أَذُق فى اللظى كهذا الضّريم

والشاعر الفقى يتسامح أحياناً فى الناحية اللغوية ، ولكنه لا يصل فى تسامحه إلى مستوى المهجريين ، فهو هنا يستعمل أيها النفس والصواب أيتها النفس ، على حد ما جاء فى التنزيل (يا أيتها النفس المطمئنة

ارجعى إلى ربك راضية مرضية) ، كما استعمل الضريم بمعنى المضرِم بكسر الراءِ ، والمكان فى نظرى للضارم لا للضريم ، لأن الضريم من باب فعيل التى بمعنى مفعول كقتيل وجريح ، لا بمعنى فاعل كجميل وكريم .

ويكسر الفقى أحياناً سلاسل حيرته ليرضى بكثير من مظاهر الحياة الواقعية من حوله ، وهو فى الحالتين شاعر عملاق ، جدير بأن يعرف عنه جميع النقاد فى العالم العربى ويأخذ مكانه فى مصاف كبار الشعراء ، اسمع إليه فى قصيدة له بعنوان « مكة » .

مكتي أنت .. لاجلالٌ علي الأرض .. يدانى جلالها أو يفوق
ما تبالين بالرشاقة والسحر ، فمعناكِ ساحرٌ ورشيق
سجدتْ عنده المعانى . . فما ثمَّ جليل سواه أو مرموق
ومشى الخُلْد فى ركابِك مختالا يُمِدُّ الجديدَ منه العتيق
أنتِ عندي معشوقةٌ ، ليس يخزَى العشقُ منها ولايضلّ العشيق
ما أُباهى بالحسن فيك على كثرة ما فيكِ من مغانٍ تشوق
أنتِقدْسٌ فليس للهيكلِ الفانى بقاءٌ ـ كمثله ـ وسموق
كلُّ حُسْن يبْلَى وحسنُكِ ـ يامكّة ـ رغم البِلَى : الفتِيُّ العريق
درج المصطفى عليكِ فأَغلاك . . وأَغلاك . . بعدَه الصديق

لست أدري كيف دخل الهيكل إلى شعر الفقى وكيف سمح لنفسه بهذا التنظير الذهنى به .؟ ليس له من تفسير سوى ثقافته المهجرية ، فقد زحفت على شعرنا العربى منها كثير من التعبيرات المسيحية التى أصبحنا نستسهل استعمالها ، مع أنها تحمل فى ثناياها عقائد غيرنا . . ! كمذبح الحرية التى عنون بها الفقى إحدى قصائد الديوان ، وكحديثه هنا عن الهيكل ، وإذا استعدنا البيت الأخير من الأبيات التى أوردناها :

درج المصطفى عليكِ فأغلاك .. وأغلاك .. بعد الصديق

نجد فى آخره ميلا إلى النظم ، كما أن القافية هى التى جعلت الكلمة الأخيرة : الصديق ، وليس عمرَ أو عليّا أو أي صحابى آخر . وإذا كانت مكة اكتسبت الفخار من الرسول صلى الله عليه وسلم فما بال الصديق؟ فلا عطر بعد عروس كما يقول المثل ، وإن جل الصديق قدراً . والقصيدة على كل حال تتفق مع قصيدة الشاعر حمزة شحاته عن جدة فى القافية والغرض . وما أروع قوله بعد ذلك :

ربَّ صخر فى بطن واديكِ ـيا مكةَـ يهفو إليه غصن وريقَ
لستُ وحدي متيماً ، فالملايينُ فريقٌ يمضى فيأْتى فريق
تتوالى عليكِ منهم صبابات فيُصْغِى لها الفؤادُ الرقيق
ماتأنقتُ فى المقالِ: ففى بحرِك معنى ـيُعْيِي المقالَـ أنِيق
واللسان الذليق يعجز أَحياناً إذا أُحْصِرَ اللسانُ الذليق

ولا ينسى شاعرنا أن يسهم بفنه فى الإشادة باليوم الوطنى للمملكة ، كغيره من الشعراء الذين امتلأت قلوبهم بالمعنى الكبير الذي يعنيه هذا اليوم بالنسبة لأبناء هذا الوطن ، إنه يعنى القضاء على التأخر والجهل والجمود ويعنى القضاء على التفرق والتفكك ، وانتزاع الضغائن والأحقاد . يوم جمع الله به القلوب على يد جلالة الملك عبد العزيز على الحق والألفة والإخاء ، يقول الفقى فى قصيدته بعنوان (يوم وطنى) .:

هو يومُ بداية التّوحيدِ فيه تمّتْ على يد الصنديد
لم يكن يعرف المحالَ من الأَمر إذا سار فى الطريق الحميد
ليس فى هذه الحياةِ محالٌ يتصدى أَمامَ عزم شديد
ولقد كان أَلْمَعِيًّا فما يحكم فى الأَمر غيرَ حكْمِ الرشيد
منذ ماشب ، شب للعَرَبِ الشُّم ، فكان العميدَ وابن العميد

وحد الشملَ بعد ما انفرط الشملُ ، وكدنا نضيع بالتبديد
فإذا بالنثير يجمعه النّظمُ فيغلو به كعِقْدٍ نضيد

ويبدو أن بين شاعرنا الفقى والبحر الخفيف ألفة بعيدة الغور وتناغمًا عاطفيّا عجيبا ، فكثير من أشعاره فى الديوان والتى ما زال يتحفنا بها فى الصحف هى من البحر الخفيف ، وهو بحر يغتفر فيه من العلل والزحافات ما لا يغتفر فى غيره .

ومع أن الفقى كان من المجددين فى الأغراض والمعانى والصور داخل إطار الموسيقى الشعرية القديمة فإنّه أبى إلا أن يسهم فى شعر التفعيلة ولو بقصد المشاركة واستعراض القدرات أو لعله تجانس عاطفى بينه وبين التجربة التى أفرغها فيه . نجد فى الديوان قصيدة بعنوان (فروق) منها :

يا للتبابْ
يا للتنابُزِ والسباب . . .
يا لَلْفضائحِ تزكُمُ الانافَ فى وضَحِ النهارْ
وفى دجى الليل البهيم .
فما يقرّ لنا قرار

ولا يقوم لنا اعتبــار
إلا إذا قام اعتبارٌ للصغار
ومن يقيـــم له اعتبـــار
غير التشرد والخصاصة والعقوق
وصيحة دوتْ فعطّلتِ الفروق
وكيف لا تبقَى الفروق
وقد أَتينا للحياة بها وتَبْقى للمماتْ
هذي السماتُ تُميِّز الأَحياءَ في هذي الحياة
بل ميزتْ من غير أَبناءِ الحياة من الجماد.. من النبات
أَنضيقُ ذرعا بالفروق ؟ لقد جهلنا أَو ظلمنا
قل للدعاة الناقمين بغير حق . . كيف جئنا ؟
أَفلم يكن فينا القويُّ من الأَجنّة والضعيفْ. ؟
أَفلم يكن فينا الذميمُ بغير ذنب والوصيف.؟
هذي نواميسُ الطبيعة . نحن أَبناءُ الطبيعة

وفي رأْينا أَن هذا الشعر ليس ميداناً للفقى ، لقد هبطت جميع فنياته بتناوله هذا الشكل الجديد الذي لم يقصد به إلا إثبات انتمائه للجديد ، فلم يحسن توزيع تفعيلاته بشكل موسيقى ملائم ، واقترب من

النثرية المملة . إن الفقى شاعر مجدد بلا شك غاية التجديد ، ولكن فى إطار الشكل الموروث ، ولا يضيره ذلك فى شيءٍ بل يزيد من قدره ، ويُعلى من شأنه

وفى آخر هذه الكلمة لا بد أن نورد لشاعرنا الكبير لوناً آخر من شعره المتعدد الأغراض وهى قصيدة غزلية تحمل روح العصر وخصائصه من عنوانها (زجاجة عطر) يقــول :

يا عطرَها لما أَتتْنى بــه ... خجلى كأَن العطرَ شيءٌ قليل
خجْلى كعــذراءٍ ولكنّها ... بليغةٌ ليس لها من مثيل
يا آهــة أَنَّ بها شاعــرٌ ... كأَنه الورقاءُ ذاتُ الهديل
يا دميــة جاءَ بها ناحِتٌ ... فجاءَ بالفن الذي يستميل
نشربُ من عينيك عذبَ المنى ... كأَنما نشرب من سلسبيل
أَصغى فإِن العطر هــذا الــذي أَهديتِه يَشفى فؤادَ العليل
أَخاف أَن أَسكبه فى يدي ... فيعرف الحاسدُ فضل المُنيل
لقد حفظتُ العطر فى مكتبي ... فهو بظلٍّ ـ فى حماه ـ ظليل
ثم نزعتُ القلب من صدره ... وقلت: اطفئ يافؤادي الغليل
ضمختُه بالعطر حتّى انتشى ... وعزّ بالحب . وكان الذليل

إن الفقى شاعر أصيل يمتاز بالخيال الواسع والروح الإنسانية الوثابة والأفكار الفلسفية العميقة التى لاتخلو أحياناً من ضباب وغموض ، يتفاعل مع الطبيعة ويجسد معانيه فوقها حية نابضة بالشعور الدفاق ، كما أن لديه ميلا إلى الحكمة التى يلخص بها تجربة أو يختصر بها رأياً أو فكرة ، وفى أغلب أشعاره نزعة قصصية حلوة رائعة ترتفع بشعره إلى قمم الفن والجمال ، وتضعه فى مصاف الخالدين .

الشاعر الأمير

شاعرنا الأمير قمة شامخة من القمم الشعرية الباذخة لا داخل الجزيرة العربية وحدها ، بل فى العالم العربى كله ، وعلى صعيد البحث والتمحيص ، انتزع شعره الإعجاب من النفوس انتزاعاً ، ، واستولى على القلوب كما تستولى عرائس الجمال على الكون فى لحظات الأشواق والحب والفتنة ، فأفسح له الأدباءُ والنقاد درب الخلود ومعاريج الشهرة والذيوع ، وجردوا أقلامهم لتقويم شعره وإجلاءِ النواحى الفنية فيه ، فكان فى كل مرة يزداد روعة وجمالا . وتنكشف جوانب كثيرة منه تؤكد عمقه وأصالته ، وتحله مكانته اللائقة به فى عالم الفن والإبداع . كان شعره أول سفير عربى عَبْر حدود البلاد ليمثلها أحسن تمثيل ، وليقنع الناس هناك أن الأرض التى أنجبت قبلُ لا تزال تنجب ، وأن البلاد لم تجدب ، والمعِين لم ينضب . إنها لا تزال تزخر بالملكات الخلاقة والعبقريات المبدعة ، التى تصل الأمجاد الشعرية الماضية لهذه البلاد بعنفوان الحاضر وحرارته وإشراقه ، فى إيمان وثقة واقتدار ، ذلكم هو الشاعر

الأمير ، (صاحب السمو الملكى الأمير عبد الله الفيصل) الذي عرفت دنيا الشعر إطلالته الأولى عليها باسم : (محروم) ، فبهذا الإسم الشاعري كان ينشر معظم قصائده داخل المملكة وخارجها ، وبهذا الإسم نشر ديوانه الأول (وحى الحرمان) عام ١٣٧٣ هـ .

والشعراءُ الأُمراءُ فى تاريخ الأَدب العربى قلة ، تستدعى التوقف وتتطلب التأمل ، كظاهرة خاصة متفردة ، صحيح أَنك تجد من بينهم من ينظم البيت أَو القصيدة ، ولكن الذين فرغوا منهم للشعر أَو فرغ الشعر لهم : معدودون ، ذلك أَن انشغالهم بالأُمور المختلفة كثيراً ما يلتهم طاقاتهم فى وجهات أُخرى ، ويضيق أَمامهم فرصة التفرغ للآداب والفنون ، إلا فى الحالات التى يخالط فيها الفن النفس ويمازجها بشكل عنيف لا يمكن معه الإنفكاك بحال ، بحيث يصبح جزءًا من الذات ومقوماً من مقوماتها ، وكذلك كان عبد الله الفيصل ، ففى الشعر متنفسه وانطلاقه ، وبه يحقق وجوده الفنىّ وسعادة روحه ، فلا غنى له عن الشعر ولا غنى للشعر عنه بحال .

فالشاعر الأصيل من وجد نفسه شاعراً دون خيار . ومن أجل هذا آثرت أن أسميه الشاعر الأمير لا الأمير الشاعر ، وسيحتفظ تاريخ الأدب باسمه مع الشعراءِ الأمراءِ القلة : عبد الله بن المعتز ، وأبى فراس الحمدانى والمعتمد بن عباد ، مع ميزة ظاهرة ، وهى أنه من أسرة يقرض أكثر أفرادها الشعر ويميلون إليه : الفصيح منه والنبطى ، ولذلك نجد شاعرنا الأمير يبدأ نظم الشعر فى سن مبكرة جداً ، ويزاول النوعين معاً أيضاً ، ولكن شعره الفصيح هو الذي يعنينا ، وهو الذي عرف به فى الأوساط الأدبية العربية .

وفى الرياض قلب الجزيرة العربية ولد وترعرع ، وفى كنف جده العظيم نشأ وتأدب ، ثم على يديْ والده الملك الشهيد تم له ما تم من تعليم ورعاية وتوجيه ، يقول الشاعر الأمير فى مقدمة ديوانه : عزائى الوحيد أننى أحب وطنى وشعبى حباً لا يعادله حب ، وأتفانى فى عملى وأخلص لمبادئى العليا التى غرسها والدي فى أعماق نفسى ، ومنتهى سعادتى شعوري بأننى أحب الكثير من مواطنىّ الكرام .

وعندما تقرأُ مثلى ديوان (وحى الحرمان) لتكتب عنه تحار فى الاختيار ، لأَن كل قصيدة فيه تطالعك بلون خاص من أَلوان الغزل الرفيع ، أَو الوطنية المشبوبة ، وأَكثر قصائده تلقفها الفنانون فى المملكة وخارجها وغنوها ، وأَسعدوا بها جماهيرهم نغماً رائعاً وشعراً أَصيلا ، ومن هنا أَجد نفسى أَخيراً مشدوداً إِلى قصيدة رددتها وترددها جميع الشفاه فى العالم الربى ، وهى (قصيدة سمراءُ : التى يقول فيها :

سمراءُ يا حلْمَ الطفولَه ... يا مُنْيَةَ النفسِ العليله

كيف الوصولُ إِلى حماكِ ... وليس لى فى الأَمر حيلهْ

إِنْ كان فى ذلِّى رضاكِ ... فهذه روحى ذليلهْ

ووسيلتى قلبٌ بـه ... مثواكِ إِن عزَّتْ وسيلهْ

فلترحمى خفقاتِه ... لك واسمعى فيه عويلهْ

قلب رعاكِ وما ارتضَى ... فى حبه أَبداً بديلهْ

أَسعدتُه زمناً وروَّى ... وصلُكِ الشافى غليلهْ

ما بالُ قلبِك ضلَّ عنه فما ... اهتدَي يوماً سبيلهْ

وسبيلك الذكرى إِذا ... ما داعبتك رؤى جميلهْ

فى ليلة نسجَ الغرامُ طيوفَ ... ها بيد نحيله

وأَطال فيها سهدَ كلٍّ متيَّم يشكو خليلهْ
سمراءُ يا أَملَ الفؤادِ وحلْمَهُ منذُ الطفولهْ

ردد الأَبيات المرة تلو المرة وستجد المعانى تتدفق إلى نفسك فى كل مرة كشلالات الضياءِ ، تزيد ولا تنقص ، وتتسع ولا تضيق ، وتحملك على أَجنحة من نور إلى أَرض الأَشواق والذكريات :

فى ليلة نسجَ الغرامُ طيوفَ ها بيـد نحيلهْ

فى هذه القصيدة لم يصف جسماً بَضًّا ولا كشحاً هضيماً ولم يتحدث إلى القوام الرشيق والوجه الأَنيق وإنما سكب أَحاسيسه فى قلب شبابته ثم حرك أَنامله السحرية ففاض اللحن ، وانطلق النغم هامساً كأَنفاس الربيع وتهويم الفراش وانبثاق الفجر الراقص على أَرغول الطبيعة الذي لا تنقطع أَصداؤه ولا يفْنى هواه .

وهو من الشعراءِ الذين لم يشطوا فى التمرد على شكل القصيدة العربية الموروث ، بل اكتفى بالمراوحة بين القوافى ، ليبرهن بذلك على أَن الأَهمية لا تكمن فى الشكل بقدر ما هى كامنة فى المضمون ، لأَن فى إمكان الشاعر القدير المتمكن من فنه أَن يحلق فى سماءِ

التجديد داخل إطار الأشكال النغمية القديمة دون أن يؤثر ذلك على فنه ، أو أن يعوقه عن التجديد . اسمع إليه فى إحدى روائعه تحت عنوان (ثورة الخيال) يقــول :

قلت أَهواكِ وعن دنياكِ بالحب شُغِلْتُ
وبودِّي لو تحدثتُ إلى الدنيـــا بحبِّى وأَطلْتُ
وتـأَملتُ الذي يُوحى إلى قلبي وقلـتُ

★ ★ ★

هل سمعتِ اللحنَ من قلبيَ ينسـابُ لقلبي
ثم يرتــد فيَروِي لك ما قصــةُ حبِّى
وينــاديكِ إلى عُشٍّ هـــــوانا المستحَبِّ

★ ★ ★

هل رأَتْ عيناكِ فى الصحو وفى بعض السهادِ
صُوَرَ البعدِ الذي أَذكَى خيــالى وفـؤادي
وترامَى بظنــونى فى النــوى فى كل واد

★ ★ ★

هل سمَتْ بالوهمِ دنياكِ إلى حيثُ وجـودي
وتوهمتِ على البعـد رضائى وصـــدودي
وأَنا حيث أَنا أَعبث فى دنيـــــا خلودي

★ ★ ★

هل أُدارِي الأَلم العاصف فى قلبي بصبري
أَم أَبوح اليوم بالسرِّ وهل يجهل سرِّي . ؟
لست أَدرِي هل أَبوح الآن ويْحى لست أَدري . !

وشاعرنا الأَمير فنان مثقف اكتسب ثقافته الواسعة من المطالعة والمجهود الشخصى والإنكباب على القراءة والتأَمل فى الشعر العربى القديم والشعر الحديث العربى منه والمترجم من مختلف الاداب العالمية ، بالإضافة إلى ما يمتلكه من موهبة خصبة واحساس فطري مرهف ، امتزج فى داخله كل أُولئك وكون له شخصية متميزة ليست شرقية ، ولا غربية ولكنها شخصية عبد الله الفيصل.

والشاعر العبقريُّ كثيراً ما يلتقى مع أَمثاله من العباقرة عن طريق المصادفة أَو المعارضة الأَدبية ، وفى قصيدة شاعرنا الأَمير (ياناعس الطرف) نجده يلتقى مع قمة شعرية فى الأَندلس وهو ابن زيدون فى قصيدته الشهيرة التى يخاطب بها ولادة بنت المستكفى ، والتى منها :

أَضحى التنائى بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لُقيانا تجافينا

بنتُمْ وبنا فما ابتلّتْ جوانحُنَـا

شوقًا إليكم ولا جفت مآقينـــا

والتى عارضها كثير من الشعراءِ البارزين مثل الشاعر الكبير أَحمد شوقى فى قصيدته التى مطلعها :

يا نائحَ الطَّلْحِ أَشبــاهٌ عوادينــا

تَشْجَى لواديكَ أَم نـأْسَى لِوادينا

يقول شاعرنا الأَمير :

يا ناعسَ الطرْفِ قد فازتْ أَعادينا

واستبْشروا بِمُناهُمْ فى تجافينــا

وكفَّ عنا كؤوسَ الصفْوِ ساكبُها

وعاد بالشجو والأَحزانِ يُسقينــا

وودعْتنَا أَمانِى الوصــلِ مسرعــةً

حتى غدونا بمنــأًى عن أَمانينــا

واستسلمتْ لظلامِ اليأْس أَنفسُنا

إلا العُلالاتُ من ذكرَى تَلاقينــا

وكان بالأَمس شادِي الوُرْقِ يُطربنا

لكنه إذْ يغنِّى اليومَ يُشجينـــــا

فقد سمعتَمْ إلى إرجافِ عاذِلِنــا
وقد أَطعتُمْ وشاياتِ الهوَي فينا
ما كان ظنِّى بكمْ يامنتهى أَملى
أَن الوشاةَ تُقصِّيكمْ فتُقْصِينــا
وأَنَّ ما زعمَ الحسّــادُ مقتــدِرٌ
أَنْ يطمئن إليه قلبُكُمْ حينــــا
وأَنكم تُؤثرون الشكَّ إن عرضتْ
به البوارقُ من إرعادِ لاحِينــــا
وأنكم قد صممتُمْ عن معاذرِنا
لم تسمعوها وأَسمعــتم أَهاجينــا
زعمتمونا نقضْنا عهدَكُمْ وغــدا
لنــا بغيركمُ شغلٌ يعنِّينــا
إنّا وإياكمُ نجمان فى فلَك
يديرُهُ الحبُّ فى آفاقِ ماضينــا
مهما اختصَمنَا فإن الشــوق يجمعنا
أَو افترقنــا فإن الحبَّ يدنينــا
فما ترى اليوم من صبْري ومن جلدِي
فللكرامة فضـــلٌ من تأَسِّينــــا

والشاعر مهما حلق فى وجدانياته وعاطفياته فلا مناص له من أن يرتبط بمكانه وزمانه ومجتمعه وبيئته ارتباطاً : يفرض عليه الصدق والالتصاق النفسى بها ، ويجعله - لو انفصل عنها أو انحاز إلى غيرها - غريباً لدي نفسه وغريباً عمن يتذوق شعره ، ولذلك أنت تلحظ هذا الارتباط الوثيق يسود قصائد شاعرنا الأمير ، ويسمها بطابعه المتميز حتى فى غزلياته . هذه حقيقة . والحقيقة الأُخري تجدها فى أشعاره الوطنية الخالدة ، وهنا يلتقى شاعرنا مع شاعر العاطفة الكبير الأخطل الصغير ، يقول شاعرنا الأمير فى إحدي وطنياته بعنوان « إلى شباب بلادي » :

مرحَى فقد وضُحَ الصواب	وهفا إلى المجد الشباب
عجلان ينتهبُ الخُـطى	هيمان يستدْنى السحاب
فى روحـه أملٌ يضيءُ	وفى شبيبته غلابْ
قد فارق الجهلَ العقيمَ	وهش للعلـم اللباب
ورنا إلى مستقبـل	يرقَى به مَتْن الصِّعاب
قد راح يَستهدي العُـلا	ويصارعُ الموجَ العباب
فى الأَرْضِ أو فى البحر أو فى	الجوِّ فوقَ ذري الضَّباب

ذا كمْ لَعمري عُدة الوطن الـكريم المستطـــاب
ما المجد يطلب بالمنى كلا ، ولا السُّمْرِ القضاب
المجدُ يُبنَى بالعلـوم تهـزٌّ عالمَنَا العُجاب
والعلم رايةُ كلِّ شعْبٍ ناهضٍ ســامى الــــرغاب
وعليه فلنبْنِ الحيــاة ولا نساومُ فى الثّواب
ولننْطلِق فى عزْمنــا مثل انطلاقاتِ الشّهاب
كيما نُرَي فوق السُّها كيما نمجَّد فى المــآب
هذِي نصيحــةُ مخلِصٍ يهوَي المجادةَ والطِّلاب
كرمتمـــــونى دائمــا فلكمْ حيــاتى ياشباب

أَية وطنية مخلصة هذه ؟ وأي حب زاخر يسري خلال هذه الأَلفاظ ؟ فى وضوح يشبه وضوح الجزيرة العربية فى الليالى القمراءِ ، وصفاءٍ يشبه صفاءَ قلوب أَبنائها الأَوفياءِ . إن شاعرنا الأَمير يهش للنهضة العلمية التى أَخذ بها شباب بلاده ، ويحثهم على السير فى دروب العلم إلى آخر الشوط ، لأَن العلم هو طريق المجد وسبيل الرقى والتقدم ، وعشيه تبنى جميع النهضات فى العالم . قال شاعرنا هذا قبل أَن تنتشر المدارس فى البلاد بالقدر الذي نراه اليوم ، وقبل أَن تقام وتشاد الجامعات ، فما

عساه أن يقول اليوم وهو يرى آماله قد تحققت وأَحلامه تحولت إلى واقع ملموس ، لا شك عندي أَنه سيطلب المزيد والمزيد ، شأْن كل مواطن مخلص يرتبط وجدانه بوجدان أُمته ويعيش أَحلامها وأَمانيها .

وفى إحدي سفرات شاعرنا الأَمير خارج بلده يتذكر ربعه وخلاّنه ، ويهيج بخاطره الحنين إلى وطنه الذي أَحبه طفلا وعشقه كهلا وورث حبه من أُستاذنا جميعاً فى الوطنية : جلالة الملك الشهيد رحمه الله ، يقول فى قصيدة له بعنوان (أَين منّى ؟ :

يا طيرُ هيجتَ آلامى وأَشجـانى
بمـا تغنِّيـه من أَلحانِ ولْهـان
بى مثلُ ما بكِ من أَحـزان مغتـ
ربٍ ، فالكلُّ منا وحيدٌ ما له ثان
بعثتَ شكوايَ أَلحانا مرتـلة
وأَنتَ شكواكَ ترجيعٌ لأَلحـانى
تشكو فراق أَليفٍ كنتَ تأْلفُهُ
أَما أَنا فشكاتى بُعـدُ أَوطـانى

أَين المصيفُ وأَيامٌ بـــه سلَفَـــتْ
وأَينَ يا طيرُ أَحبـــابى وخلانى؟
أَين الجبالُ التى تكسو أَعاليَها
بمُذْهبٍ من كثيف السُّحْبِ هتّان ؟
إلى أَن يقول :

وأَين - لا أَين - ساعاتٌ مفضلةٌ
كانت بما راح فيها خيرَ أَزمانى
إن عزّ يومًا على الأَيام عودتُهـــا
فالحلْم يا طيرُ أَدناها وأَدنانى

وفى غرة ربيع الأَول من عام ١٣٩٤ هـ دعت جامعة الملك عبد العزيز إلى عقد مؤتمر كان الأَول من نوعه فى بلادنا ، وهو المؤتمر الأَول للأُدباءِ السعوديين الذي تم انعقاده خمسة أَيام متوالية فى مكة المكرمة ، واشترك فيه شاعرنا الأَمير بقصيدة رائعة صفق لها الحاضرون من الأَعماق وهى :

فى رحابِ النُّهَى وصرْحِ العلومِ
جُمِـعَ الشملُ مثل عِقْدٍ نظيـــمِ

وأعيــدت إلى عكاظَ أمــانٍ
كنَّ حلْمًــا مجنــحَ التهــويم
فاستعاد الأديبُ والشاعرُ الصدّ
احُ جنْحا .. له مطافُ النجوم
أَيها الصــرحُ يا منــارَةَ علمٍ
حمَلَتْ رايةَ الإمــامِ العظيم
هو عبد العزيز خيــرُ مليك
حصــن الملكَ بالســلوك الحكيم
جامعُ الخيرِ والبطــولةِ والإقدامِ
بالخُلْــقِ والفـــؤادِ الرحيــم
زادك الله متعــة وازدهـــارا
وشمــولاً لكل خُلْـــقٍ قــويم
فيك تزهو الرؤي ويَخضوضلُ الفــ
كْرُ ويغدو الظــلامُ غيرَ بهيم
ويشع الحِجــا ويأْتلق الوعْيُ
على وهْــج خطــك المستقيــم

* * *

يا لقاءَ العلوم بالشعر والنثر
على منبر العطاء الكريم
قد جمعت الفنون والأدب الحيَّ
ورَوادَ كلِّ قولٍ سليم
فالتقى الشدوْ بالفصاحة لُقيا
الطيرِ باللوْح بعد صمْتٍ مقيم
وانتشى السمعُ بالبلاغة والإلهامِ
بعد الكرَي وطولِ الوجوم
واحتفى الحس بالصُّداحِ رحبا
مثلما يَحتفِى الشذا بالنسيم

* * *

قادة الفكر فى ربوع بلادي
يا أحقَّ الرجال بالتكريم
أيها الكاشفون عن عَتْمةِ الحِبْر
ضياءً يختال عبْرَ التخوم
أيها الجاعلون من خرَسِ الحَوْفِ
دواءً لكل نُطقٍ سقيم

أَيها العابرون دَرْب المعــــالى

بجيــادِ المنثـــورِ والمنظـــوم

خلفكُمْ فى الخُطى مسيرةُ جِيلٍ

يتحــراكمُ بشـــوقِ الفطيم

لا تضِنُّوا عليه بالنصح والتوجيه

فالفــكرُ معـــدِنُ التقـــويم

واجعلوا الحرف ضاحكا كالأَمانى

وانشروا النُّــور بالصُّداح الرخيم

إن من يستطيع بذْلا ويَحْيَى

دون جُــودٍ وفى انكماش عقيـم

شأْنه فى الحياة شأْنَ هبــاءٍ

لا يرُجَّى على الخـــواءِ مقيم

جمَــعَ الله شملنـــا كلَّ عــامٍ

فى لقاءٍ على الرَّخــاءِ العمــيم

وها قد حقق الله أُمنية أَميرنا الشاعر ، فأَصبح الله يجمع شملهم كل عام فى لقاءٍ ضخم يضم كل عناصر الخير والعطاءِ ، ويعيد لهذه البلاد أَمجادها الأَدبية الساحقة ، ويجعلها محجة للفكر والشعر والأَدب ،

كما هو العهد بها فى غابر العصور والأزمان ، فقد تبنت الدولة ممثلة فى رعاية الشباب وعلى رأسها الأمير الأديب الشاب : صاحب السمو الملكى الأمير فيصل ابن فهد بن عبد العزيز ـ فكرة العودة إلى إقامة سوق عكاظ ، حتى غدت حقيقة واقعة ، منذ تم انعقاد المؤتمر التحضيري لهذه السوق فى مطلع هذا العام ، وتوج كل ذلك بالتشجيع على إنشاء النوادي الأدبية فى مختلف مدن المملكة ، ورصد المبالغ اللازمة لإنعاشها والأخذ بيدها ومساعدتها على القيام بمهمتها وأداء رسالتها ، وإنها لخطوة موفقة على طريق الخير والبناء ، واهتمام آل سعود بالأدب والفكر والشعر يؤكد ما قلته فى أول هذه الحلقة ، من أنها أسرة مفطورة على حب الشعر والأدب ، فهى إما تمارسه وإما تدعو إليه وتناصره وتوفر سبله وتشد من عضد العاملين عليه ، وتلك حقيقة سيسجلها التاريخ وتذكرها الأجيال .

الثلاثاء الحزين

تمر بنا هذه الأيام ذكري مؤلمة يعجز القلم عن وصفها ، وتضيق الكلمات عن حمل معانى الحزن المرنّة التى تحملها هذه الذكري . . فاللهَ اللهَ للقلوب الوالهة والنفوس الضارعة بالدعاء للشهيد . ! شهيد الحق والخير والعدالة.. فيصل بن عبد العزيز رحمه الله وأسكنه فسيح جناته . . لم يأتنا من وادي عبقر فى هذه المناسبة شاعر واحد ، بل سالت بأعناق المطي الأباطح ، وازدحم أبناءُ عبقر على ضفاف الوادي الحزين ، يملؤون الجواء بصرخات الألم والأسى ، ويرسلون رثاءهم فى المليك الراحل كلمات ثكلى ينقطع لها نياط القلوب ، وتتفتت لأنينها الكبود . فلله أنت يا فيصل.! ولله شعب حاطك بكل معانى الوفاء . !

لَحقُّ أَنت إحدي المكرمات عظيمٌ فى الحياة وفى الممات

بين يدي الآن مجموعة شعرية من رثاء البطل الشهيد لمختلف الشعراء قام بجمعها وطبعها واحد من شبابنا المخلص تحت اسم (الثلاثاء الحزين) ، هو الشاب الأديب عبد العزيز شكري ، وإنه لثلاثاء حزين

حقاً .. حاولت القصائد مجتمعة أن تعبر عن بعض ما خلفه من حزن وألم خالدين ، ما حنت النِّيب فى نجد . ولعل من أبرز قصائد هذه المجموعة قصيدة الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي وهى بعنوان (فارس القدس) ، يقول القصيبي :

فارسَ القــدس أقفر الميــدانُ
وهوى البنْــدُ واستراحَ الحصان
سقط السيفُ من يــدٍ رفعتْــه
نصفَ قرن . . واستسلم العنفــوان
وانحنتْ أمــة عليك بقلــب
ملأ الوجــدُ نبضــهُ والحنــان
الرياض الحسنــاءُ وجــهٌ كئيبٌ
أوغلتْ فى شحــوبه الأحــزان
والجماهيرُ موجــةٌ من ذهـــول
ونشيج ، ماذا يقـــول البيان . ؟
نبأٌ طاف بالصحــاري فرِيعــتْ
واقشعــرت لوقعــــه الكُثبان
أجهشت بعــده الخيام ، وفا
ض الرملُ دمعاً ، وأنّتِ الوديان

وهكذا يستمر القصيبي يفجر فى الحروف الدموع الحرى ، ويودع الكلمات مشاعر الحب والوفاءِ والإخلاص ، ويصور مدي تعلق الشهيد بالمسجد الأقصى ، وكيف كانت القدس على رأس القضايا العربية والإسلامية التى كانت تشغل باله وتستنفد جهده عملا وبذلا وتخطيطاً .

ومن مقاطع هذه القصيدة قوله :

فارسَ القدس مُتَّ أنت ويبقى
الحبُّ ، يبقى الوفاءُ ، يبقى الكيان

كلما خرَّ فارس فى ثرانا
رفع البندَ بعده فرسان

وقد تعاقب على هذا المعنى شعراءُ كثيرون ، وأوردوه فى صور مختلفة ، منذ قال السموأل فى لاميته الشهيرة :

إذا مات منّا سيد قام سيد
قَؤولٌ لما قال الكرام ، فَعول

وقال صاحب ملحمة أمجاد الرياض أيضاً :

كلما غاب فى المجرّة نجمٌ
لاح نجم يموج بالأضواءِ

ورغم أنني ممن حظي برثاء الملك الراحل فإنني أسجل إعجابي المتزايد بقصيدة الدكتور القصيبي، وأعتبرها قمة ما قيل فيه من رثاء

أما قصيدتي التي ضمتها هذه المجموعة فإنني لا أستطيع التحدث عنها ، وإنما يكفيني أن أقدم بعض أبياتها اعتزازاً مني بالاشتراك في هذه المناسبة ، إذ من المحرج أن يتحدث الإنسان عن نفسه . قلت بعنوان (الدموع الخرساءُ) :

ما لهذي الوجـوه لفَّعها الحزن
فبـاتت مشـــدوهةَ السِّيمـاءِ
تترائى الآلام فيهـــا سطـوراً
داميـــاتٍ من الأَسى والبكـاءِ
لونتها الأَشجـانُ حتَّى تبـدت
مثل لـون الاترنْجـة الصفراءِ
يا لهذي العيـون تَفْهقُ بالدمـع
سخيًّـا مضمَّخـا بالدمـاءِ

ومنها أيضاً :

مَه نذير المذياع يا صوتَ شُـؤم
حملتْــه الأَنبـاءُ عبر الهـواءِ

قد كسرتُ المذياع ذعراً ونـدَّتْ
حكمـتى عن رصـانة الحكمـاءِ

فنثرت الدموع .فى اللفظ حـتى
ضج فى الحرف صوتُ هذا البكاءِ

قـدَرُ اللهِ فاقْطـعى يا قـلوبٌ
واجأرِي فى مصـابنا بالدعاءِ

كلُّنـا راجعـون لله فابكـى
بدمـوع وسلـمى للقضـاءِ

وتكاد قصائد المجموعة تجمع على الاسترجاع والدعوة إلى الرضا بالقدر الذي حل ، رغم عظم النكبة وضخامة المصاب ، وذلك يدل على مدي الإيمان الذي يعمر قلوب هذه الأُمة المؤمنة التى بناها الفيصل ، وصاغ كيانها والده البانى وورثت أَمجاد الوحى وجلال القرآن.

يقول محمد أَحمد العقيلى بعنوان (جرح الملايين):

غاب عنا بوجهـه السمْحِ نور
أين من فيض نـوره النيِّـرانِ . ؟

فتعصَّى الكلام وامتنـع الشعرُ
فنهْـرُ الدمـوع كالطـوفان

أين منى البيـانُ أغمس فيه
ريشةَ الفن وردةً كالدهـان . ؟

وأصوغ النجوم سِمْطا من الدمـع
مضيئا فى جيدِ صدْرِ الزمان

إنَّ جرحى جرحُ الملايين طـرًّا
دافقَ النزْفِ من نجيع قـان

كُتِبَ الموتُ يا حبيبى علينـا
كلُّ شىء على البسيطـة فان

وأبيات هذه القصيدة تنيف على الستين بيتاً تتردد بين الأَسى والتأَسى والبكاء والتصبر ، ومن أجمل مقاطعها قوله :

أي رزءٍ بفيصل طبق الكون

أحال الوجود كالبركان . ؟

فإذا الأفق لوحةٌ من سوادٍ

وإذا الجو لجةٌ من دخان

يشهق العصرُ بالتنهد حزنا

ويئن التاريخُ بالأحزان

إنه لم يقل اربَدَّ وجه الأُفق أو أسود الجو ، كما اعتاد القدماء ، فهو شاعر معاصر يأخذ صورة مما حوله فالأُفق لوحة ن سواد والجو لجة من دخان ، والعصر يتنهد حزناً إلى درجة الشهيق والتاريخ يئن من الأشجان.

أما الشاعر المرحوم ضياءُ الدين رجب فإنه كان كلاسيكياً جداً فى رثائه ، تقرأُ قصيدته فتحس أنك تقرأُ لشاعر عباسي يدق على الألفاظ بعنف ، ويؤثر جلبة التعبير عن اللفظ الذي ينساب إلى القلب انسياباً . يقول بعنوان (مستبق الخيرات) :

أمستبقَ الخيرات . . ما أعظمَ السَّبْقا
تحرَّيْتَه شوقاً إلى الملإِ الأَبقى
كأنك تدري الموعدَ الحق آخذًا
له أهبةَ الظَّمآن يستعجلُ البَرْقا

بسمْتَ وما أغْلى ابتسامَكَ إنه
لفرْحةُ من أعطى الذماءَ وما أبقى
تسامى برُجْوَيِ الواثقين تبرَّأَتْ
من الشائباتِ السودِ يحذقها الأَشقى

فنحن نجد كلمات مثل : تحرّيته ، والذماء ، ورجوي ، علاوة على ما فى قافية القاف من جرس عال ووقع قد تنبو عنه الأسماع فى مثل هذه المواقف ، ويختم الضياءُ القصيدة بقوله :

وصانوه فى الأعماق سرًّا وفى النُّهى
وفى الروح لا تَبْلَى وفى الدمع لا يَرْقا .

وكان بـأمجـاد الأُرومـةِ خالدا
فأشرق فينا (خالدٌ) صِنْوه الأتْقى

وفى الظل (فهدٌ) سيّدٌ وابنُ سيــدٍ
فما أروع المسرَى وما أكرم العِرْقا . !

فيارب صُنْ للدين والحق عاهلاً
بـأفيـــائه لا نُستضامُ ولا نَشْقى

ومما سار على هذا النحو الاتباعى من هذه المجموعة قصيدة (وا فيصلاه) للشاعر على زين العابدين ، والتى مطلعها :

وا فيصلاه وقلبُ الشرق منفطــر
والغرب مكتئبٌ والكــون منبهر

وا فيصلاه تعــالت من حنــاجرنا
نَدْباً ينوبُ أسًى من وقْعِــه الحجر

وا فيصلاه حروفٌ حين أنطقهــا
أحِسّ أنّ نياط القلب تنفجــر

أقولها وفؤادي ذاب من كمَـدٍ
القلبُ منصدعٌ ، والدمعُ منهمـر

ولعل من أجمل أبيات هذه القصيدة قوله :

ما مات مَنْ سجّلَ التـاريخُ سيرتَهُ
كلاَّ فليس يموت المجدُ والظّفَـر

صمْتٌ فِعالُك لا ترضيك جعجعةٌ
خيرُ الملوك الذي يُعطِي ويعتـذر

يا قومَ يَعرُبَ إن الرزءَ يشملُنـا
وهل يهون الأَسى والليلُ معتكـر

فى حالِكِ الليل والأَرزاءُ مطبَقَـةٌ
وللعـدوِّ نـوايا كلُّهـا نُـذُر

ونال المذياع ما نال من بعض الشعراء من أثر الصدمة ، لأَن الخبر المشؤوم إنما وصل إلى أَسماع الناس من المذياع ، وما قصدوا فى الواقع المذيع ولا المذياع ،

وإنما قصدوا تصوير وحشيّة النبإ عليهم وعلى أبناء هذا الشعب الوفى فى كل مكان .

يقول عبد الله بن إدريس :

ضاقت بنا الأرض واشتدت بنا الظُّلَمُ
من هول فاجعة تبكى لها الأمم

يا هولَ ما نزلتْ بالعُرْب قاصمةٌ
من المآسى التى من دونها الألم

والمسلمون بكلِّ الأرض فى أَجَجٍ
من الفجيعة لا يخبو لها ضرَم

ظلت حلومُهمُ حيْرَى وقد وجِمَتْ
من صدمة النبإ المشئوم إذْ علموا

نعى الأثيرُ لهم رُبانَ فُلْكِهمُ
القائدَ الفذَّ والأمواج تلتطم

واشترك ابن إدريس مع أكثر الراثين فى تطمين قلوب الأمة وتقويتها على الصبر والثبات ، وحملها على

الأَمل فى المستقبل ، لأَن من ولي أَمرها بعد الفيصل هو جلالة الملك خالد ، وتحمل أَعباء المسئولية معه ولي عهده الأَمين ، يقول ابن إدريس فى خاتمة قصيدته :

وحسبُنا إن بكينا اليوم فيصلَنا
أَنَّا على غـدنا ما مسّنا سَقَمُ

فخالدٌ صنْـوُه فى كل مكرمة
عهدٌ جـديد على الآفاق يلتئم

مواكب الخير فى أَصقاع مملكة
يحلو بها (خالد) و (الفهد) يرتسم

مليكنا ووليّ العهد من أَمَم
بوركتما . . بعُرَي الإسلام عزُّكم

وننتقل فى رحلة الثلاثاء الحزين مع محطات الأَلم والشجى ، فنتلقى بالدكتور ناصر بن سعد الرشيد فى قصيدة بعنوان (موكب نور) حيث يقول :

إن كان دمْعكما عينيَّ قدْ غارا
فلأَبْكه بنجيع القلب فوَّارا

لئن حثونا عليك التُّرْبَ فى وجل
فقد كسوناك من أَرواحنا غارا

لقد رُزئنا بخطْب مذهل جلَلٍ
يصيِّر الحِسَّ فى الموهوب محتارا

إن القريحة ثكلى لا تطاوعنى
مهما اعتصرتُ من الوجدان أَشعارا

إن المراثىَّ مهما كان مبدعُها
لا تستطيع وفاء الحق مغوارا

ويختمها بقوله :

سلواي فى الخطب أَنَّا لاحقون به
وأَن (خالدنَا) من نَبْعه اشتارا

أَنعِمْ به خلَفًا (والفهد) يعضده
إنى أَراهم وأَيمُ الله أَخيارا

ونلحظ أن كلمة يعضده لغوياً كان ينبغى تضعيف الدال فيها حتى لا يذهب معناها إلى عضد الشجر ونحوه ، وكذلك كلمة وأيم كان ينبغى ألاّ تهمز ، لأن العلماء نصوا على أنها همزة وصل لا قطع .

وفى هذا الإطار أيضاً نورد قصيدة الفيصل الشهيد للشاعر محمود عارف . . ومطلعها :

ماذا أقول وحزنُ الحرف والكلمِ
يجري على الطّرس .. مسفوحاً من الألم

الله أكبر أودى فيصـلٌ ومشَى
للخلْدِ مستشهداً فى الحادثِ العَمِم

الناسُ فى الشرق أو فى الغرب قد صُعقوا
لِما اعتراكَ . . وما فاقـوا من الغُمم

فى صـدر شعبك آلامٌ مبرّحـة
تنعاك لا ظيةً . . مشبوبةَ الضّرم

وهو يعنى بكلمة فاقوا : أفاقوا ، وذلك فى قوله :

(وما فاقوا من الغمم) . . وقد تعرض محمود عارف لجانب آخر لم تتعرض له القصائد السابقة ، وهو سياسة الفيصل النفطية التي أخضعت العالم الغربي وأجبرته على تغيير موقفه من القضايا العربية وبخاصة قضية فلسطين .

سياسة النفط في توجيه خطَّته
مدروسةٌ في حساب الحاذقِ الفهِمِ
أعادها طاقة في الأَرض باقيـــةً
للحق . . تَدفع . . لا للشر والتُّهم

أما ما ذكره عن مناداة الفيصل بالتضامن الإسلامي وانتصار الفكرة الإسلامية على يديه فقد تعرضت له معظم قصائد المجموعة ، يقول محمود عارف :

إنّ التضامنَ عنوانٌ لِبـــادرةٍ
من الأُخوَّة . . قد لاحتْ من الحرم
تغلغلتْ في قلوب الناس واتّسعتْ
قضيةٌ في الدُّنا في (مالي) و (الهرم)

وفيصـــلٌ رائدٌ يَرْعى بحكمته
هـــذا التضامنَ بالإيمـــان والذِّمم
لولاه ما كان للعَرَبِ الأَحرار منزلةٌ !
في عالم الغرْب ، والبرهانُ كالعلَم

أَما شاعر الجنوب محمد على السنوسى فقد حلق كعادته فى سماء الشعر ، وتهاوت آلامه على القرطاس كقطرات المطر الصخاب يقول :

رنَّ فى سمعى فكذّبْتُ صـــداه
نبـــأُ روَّعَ قلبى وشجـــاه
ما لهذا الصـــوتِ كابٍ لونُـــه
قاتمُ النبْـــرةِ مرعوبٌ نـــداه
ما له ؟ ماذا عَراه ؟ ما الذي
هزّه ؟ ماذا دهاه ؟ مَنْ نعـــاه ؟
أَصحيح قد هوي بـــدرُ الدجى
وانطـــوَي ذاك المحيَّا من سماه

وتوارتْ جبهــةٌ عاليـــةٌ
مِنْ سناها يقبس النجــمُ سناه

لم يركز السنوسى على ذكر مآثر معينة ، وإنما اكتفى بنشر عواطفه نثراً ، وختمها بقوله :

أَصبح الشعبُ حزيناً باكيــاً
كلُّ فردٍ صائحٌ : وافيصــلاه . !

لم يغب عنا مليكٌ صنعَــتْ
يدُه التــاريخَ فينــا وَبَنــاه

هو فى كلِّ مكانٍ شاخــصٌ
يمــلأُ الدنيــا سنــاه وبَهــاه

حفظ اللهُ علينــا (خالــداً)
ورعَى (فهــدًا) أَخاه وحمــاه

وســقى الرحمنُ قبــراً طاهراً
مُرّغتْ فيــه أُنــوفٌ وجبـــاه

وفى مهرجان الشعر الذي أُقيم بالجزائر ذهب وفدنا

إلى هناك والدموع تخنق نظراته ، والشهيق يحشرج في صدره ، وكان من بين رجال الوفد الشاعر محمد سليمان الشبل ، فألقى قصيدة بعنوان (راية القدس) بدأها بقوله :

حيِّ الأُباةَ الصيدَ والأَبطالا
حَيِّ الجزائرَ موطناً ورجالا

واسمع أَحاديثَ البطولة إنها
حقًّا تمثّلُ خالداً وبلالا

وأَعِدْ على أُذُنيَّ أَروعَ قصةٍ
للمجد عاشتْ للكفاح مثالا

حييتِ يا رمزَ الصمود فما رأت
عيناي أصدقَ من بنيكِ نضالا

ثم يقول :

يا مهرجانَ الشعر جئتُكَ باكياً
لا أملكُ التعبيرَ والأَقوالا

أَجْترُّ بالجرح العميــق وأَرْتدي
ثوبَ الحــداد حقيقةً وخيالا

قد راعنى الخطبُ الجسيم فلم أَجِ
دْ ، إلا الدموعَ قصيــدةً ومقالا

بالأَمس كنتُ أَجيءُ عنــدك باسماً
والقلبُ يرقص فرحــةً وجمالا

واليوم تحملُنى إليك مشاعرٌ
هوجاءُ زلزلَها الأَسى زلــزالا

إنى فُجعتُ برائدٍ من أُمّــتى
ما زالَ ملءَ قلوبنـــا مــازالا . !

وبكيت فيصلَ وهــو يرفع رايةً
للقدس أَصــدَق ما تكونُ نضــالا

وختمها بقــوله :

يا إخوتى . يا إخوةَ القلمِ الذي
ما زال ثرًّا بالمُــنَى سيـــالا

لا بد من دين يقـودُ نضـالنا
ويوحِّـــد الآلامَ والآمـــالا

فلقـد تطلَّعنـا لنصرٍ حاسم
إن لم نَعُـد للدين كان مُحـالا

وقد اشترك فى رثاءِ الملك الراحل شعراءُ الفصحى وشعراءُ العامية ، ورثاه البعيد والقريب ، ونحن هنا قدمنا الحديث عن الشعر المكتوب بالفصحى لمكانة الفصحى من قلوبنا ، وإلاَّ ففى الشعر العامى الذي رُثى به الشهيد : حرارةٌ عاطفية غلاّبة ، لأنها صادرة من أعماق صادقة ، وبخاصة إذا عرفنا أن بعض ذلك الشعر كان من نظم أقرب أقربائه . . من أبنائه وبناته . . يقول سمو الأمير خالد الفيصل :

لا هنتْ يا راس الرجاجيل لا هنتْ
لا هانْ راسٍ فى ثري العَودْ مدفونْ

والله ما حِطّكْ بالقبر . . لكن آمنتْ
باللّى جعلْ دفْنَ المسلمين مَسنـون

مَنزِلْكْ يا عِزْ الشّرفْ لو تمكنتْ
فوق النّجوم اللّى تعلّت على الكُونْ

ويختمها بقوله :

تلفّتتْ روس المخاليق.. وينْ أنت.؟
وينْ العظيم.؟ وعوّد الشُوفْ مطعون

لو شفت حال الناس عقبك تبينْتْ
مقدار حبْ الناس للّى يـودّون

ممّا بقلبي قلت يا بوي . . لا هنتْ
وإلاّ انْتْ فوق القولْ مهما يِقُو لون

والأميرة غرس الفيصل تقول :

لو أن مثلى يبكى الحى يا بـوي
والله بكيتْ وأنت يا بـوي حيا

لولاي اخافْ الله أنا لاشْرحْ الجيبْ
من حرّ نارٍ بالضمايرْ لِظِيـــا

ما حَدنْ يلومَنْ يا فاعل الطّيبْ
كلٌّ بِكَى مثــلى قريب وقصِيــا

إننى لم أورد كل أبيات القصيدة ، ولكنى واثق من أنّ الخنساءَ تحسد الأميرة غرس فى رثائها ، وتردد قولها :

ولولا كثرةُ الباكين حولى | على إخوانهمْ لقتلت نفسى

وبعد : هل أوفينا بهذا العرض السريع حق ما فى هذه المجموعة من شعر ومشاعر ؟ لا أحسبنى أدّعى ذلك ، فهى بحر زاخر . . وما أحسبنى أوفيت هذه الذكرى الخالدة حقها من التجلة والاعزار والتقدير . . غير أنى اسأل الله تعالى للشهيد الجنة ، وأقف فى اعتزاز بمن ساروا بعده على الدرب وتحملوا الأمانة فى قدرة خارقة وإيمان بنّاءٍ ، فرحم الله الفيصل وأيد الخالد وحفظ الفهد الأمين .

ربيع الثانى ١٣٩٦هـ

محمد حسن عواد

شاعرنا العواد فنان محلق فى سماء الأدب بأجنحة النسور ، وأحلام البلابل وبراءة الفراش . رسخت أقدامه على أرض الأدب فى ثقة وثبات ، وذهبت جذورها تناجى الأعماق ، ولن يستطيع باحث فى تاريخنا الأدبى المعاصر أن يتجاوزه إذا كان يريد لبحثه الموضوعية ولدراسته التوفيق ، فقد كان بكل حق ، مع رفقه من الرواد مثل محمد سرور الصبان وحمزة شحاته وغيرهما : النخبة الأولى التى وضعت الأساس وأرست القواعد ، ثم جاء مَنْ بعدَهمْ فساروا بأشرعة الأدب أشواطاً بعيدة المدي ، فلم يفتقدوا أصوات تلك النخبة الحية التى لم تبحّ لها حنجرة أو يهن لها ساعد ، بل كانت فى تجدد دائم مع الزمن ، حفظ لها كيانها وأكد استمرارها وقدرتها على مواصلة العطاء ، وذلك بلا ريب هو دليل الأصالة التى تؤهل أصحابها للخلود فى ضمائر الكون وخواطر الأجيال .

إن العواد من هؤلاء الأدباء الذين استطاعوا أن يحتفظوا بقوتهم الشعرية مع ممارستهم للنثر بحثاً وفناً وكتابة فى مختلف شئون الحياة ، مع أن هذا الوضع يبدو غير متوقع فى رأي كثير من النقاد ، ذلك أن الكتابة الفنية نوع من الأدب يتطلب العمق والأناة وإعمال الفكر ، ويميل بصاحبه إلى الحقيقة والواقع ، بينما الشعر ينتقل بصاحبه إلى عالم الخيال والأحلام ويعتمد على اللمحة وسرعة التأثير ، دون كد للفكر ولا اعتماد على الحقائق المباشرة ، فالنثر يقص أجنحة الخيال ويوهيها ، والشعر يفسد ملكة البحث ويعييها ، ويذكر النقاد قديماً جماعة معدودة ممن جمعوا بين الفنّين فى مستوى واحد مذكور ، منهم كلثوم بن عمروالعتّابى ، ولعل مما يؤكد هذا أننا نرى أكثر الكتاب الذين بدأوا حياتهم الأدبية بممارسة الشعر ، عادوا فتركوه ولم يرجعوا إليه مرة أخرى ، اللهم إلا فى المناسبات القلية ، ومن هؤلاء محمد قطب وسيد قطب ، ونجد من يصر

منهم على الشعر لا يعرفه قراؤه إلا بنثره وبحوثه رغم دواوينه المطبوعة كالرافعي والعقاد .

فالعواد إذن من هذه القلة المحظوظة التى استطاعت أَن تحتفظ لنفسها بالمستوي الجيد فى الفنين معاً . . من أهم كتبه النثرية : (خواطر مصرّحة) « نحو كيان جديد » ومن دواوينه الشعرية : « البراعم » و « أَماس وأَطلاس » و « أَشعة الشروق » . وهو شاعر يميل إلى مناجاة الطبيعة وتملىٍّ مفاتنها والاسترخاءِ فى أَحضانها . يقول فى قصيدة له بعنوان « فى حضن الطبيعة » :

غادِرانى فى الرُّبا الفِيح مليًّا صاحبيًّا
واتركا نفحةَ ريّا عطرُها يَسري إليّا
ودعانى هانئاً فيها بأَنسام الفضاءْ

* * *

غادرانى ساعةً انشق أَنفاس النسيمِ
طارحاً جسمى على الرملِ أَو العشب الوسيمِ
أَحتسى خمر الندي تقطر من كأْس الهواءْ

غادرانى أسمَعُ البحرَ ينـاجى أو يعبِّرْ
وهو يلهو ساخراً بالريح ، والريحُ تزمجرْ
فهو للشـاعر فكر وصـلاة وغنـاءْ

* * *

غادرانى أرقب النور وقد لاشَى الظـلاما
والنهارُ الحرُّ أوقـع بالليـل انهـزاما
فاختفَى النجمُ وفرَّ البـدر من وجه ذُكاءْ

* * *

لم يصف العواد صوراً جامدة ولم يقدمها مشاهد ثابتة ، بل بعث فيها كثيراً من الحركة والحياة ، وأوجد بين بعضها تـآلفاً وانسجاماً وبين بعضها الآخر حرباً وصراعاً ، واستلهم منها المعانى واستخلص الحكمة ، وما أروع أن يحول الشاعر الطبيعية كتاباً يقرأ ، يُملى الفكر ويُلقى الموعظة ويعرض الفتنة والجمال ، ذلك هو الفن الحقيقى الذي تبدعه ريشة الفنان : وفى قصيدته « لقاءٌ » يجعل من الطبيعة مسرحاً للقائه ،

وكأنه يشركها فى بهجته بلحظات اللقاء ، أو يجعل من اللقاءِ المسعد وشاحاً مكملا للوحة الطبيعة الخالدةيقول:

أما تذكرين وقد ضمّنا ... رداءُ الظلام بأعطافه ؟
وفى جانب الروض قد عمّنا ... رقيقُ النسيم بألطافه ؟
أَمام الطبيعة ، والمقلتان ... على موجبٍ وعلى سالبٍ

* * *

مساءٌ وأَروعْ به من مساءْ ... يُطِلُّ على بحرنا الأَحمرِ
وقد سكن الثغرُ إلاّ نِداءْ ... من القلب والجسدِ الأَزهرِ
يُهيب بنا : ههنا نعمتانْ ... من الحب والأَملِ الطالب
لقاءٌ وأَسعِدْ به من لقاءْ ... فرِحْنا به ، والحياةُ فرَحْ
صبيّانِ يختلسان الهناءْ ... ويلتمسانِ الهوى والمرَحْ

ويبدو لى أَن حرص شاعرنا العواد على التجديد فى هذه القصيدة من حيث التنويع فى القافية شغله عن اختيار الصور وانتقاءُ الكلمات ، فصورة رداءِ الظلام ى البيت الأَول صورة قديمة أَبلتها الأَقلام ، كما أَن الكلمات : الأَلطاف والموجب والسالب والبحر الأَحمر

والأمل الطالب : غضت جميعها من شأن النص ، مما جعلني أميل لِي أن هذه القصيدة من بواكير شعره .

ولشاعرنا العواد قصيدة بعنوان « صلاة النفس » تؤكد ولعه بالطبيعة وارتباطها الشديد بنفسه ، وهو يريد بالصلاة هنا معنى فلسفياً ولا يريد المعنى المعروف للصلاة ، ولهذا نراه يستعمل بعض المصطلحات الفلسفية مثل « الكل والبعض . . وفلك الإلهام . . وغيرها » . يقول :

قالت النفس : قم نصلِّ إلى الله فشر
ُ النفوس من لم تصلِّ

قلت : يا نفسُ سبِّحي اللهَ طوعاً
وأصيخي واستنكري أن تملّى

سبِّحي اللهَ فالطبيعةُ يقْظى
وتعالى قرْبَ الخضمِّ نصلِّ

وابعثي الوعيَ والبصيرةَ يرتادَا
مجاهيلَه على أيِّ شكل

في صفاءٍ يشع من فلك الإلهام
مستعلياً إذِ الكونُ يُمْلى

يُفهِمُ الكلَّ في حقيقة بعْض
تُبرِزُ البعضَ موحيًا روحَ كلٍّ

هذه صيحة الحياة تُنادِي
عاشقيها لفَهْمِ معنى التجلِّى

إنها فرصةٌ فلا تتركيها
تتلاشى وبادري للتملِّى

واكرعى من مناهل الروح خمرا
فتحتْ للهدَي منافذَ عقل

وهو لا يريد من نفسه أن تقنع بالنظرة إلى مظاهر الطبيعة ، بل يطلب منها أن تقف إزاءها وقفة صوفية مستلهمة ، وأن تنظر إليها النظرة المتعمقة الشاملة التى تنفذ إلى بواطن الأمور وتستكنه حقائقها ، علها بذلك تشبع الطموح البشري وتفسر له بعض مغاليق الحياة المستعصية على العقل فى حالاته العامة .

يقول العواد :

أترينَ معى الطبيعةَ كالكا
عبِ وشيُ الجمالِ فى بُرْدَتَيْها

ليس فى البحر والجبالِ ولاَفِ
ى منظرِ الكائنات نَرنُو إليها

لا ، ولا فى الطيور رفّافةَ الأَلوان ،
مرتادةً على جانبيْها

ليس فى هذه المرائى حياةٌ
ثَرَّةٌ تجثُمُ النفوسُ لديْها

إنما منبع الحياة من القلب ،
ومِنْ قاعِهِ تمدُّ يديْها

فاسلكى منهجَ التأمل فالآ
ياتُ ، توحى إذا أُصيخَ إليْها

ثم تمضى إلى الدُّنا بهدوء
أو ضجيجٍ فى شكل ظلمٍ وعَدْل

إنه يجعل فى التفكير والتأمل صلاةً واعية تلهم صاحبها الإصابة فى الرأي والإهتداء إلى الحقيقة ، وكل ما دون ذلك بهرج وزيف ولا يغنى المرء فتيلا ، وكم هى تلك السعادة النفسية التى يجدها طلاب الحقيقة حين يظفر ون بها ويقعون عليها . ! :

سعداءُ أولو الصلاةِ ولكنْ
عندما يدركون مجدَ الصلاةِ
كم صلاةٍ قوامها الجسدُ الطالـ
ـب ، سقط المتاعِ والتُّرّهاتِ
هارباً من جحيمه السهلِ يَبْغى
جنّةَ القابعين عند الفُتات
إن فى القلب جنةً وجحيما
وإتساعاً لفَهْمِ معنى الحياة
فدعى كونَكِ الصغيرَ سويعاتٍ
وهيّا إلى الخضمِّ نصل

ثم يدعو نفسه إلى التفكير فى ملكوت السماء وعالم الأرواح ، ويعرض عليها وعلينا عدة قضايا ومتناقضات تبحث عن حلول ، وتكوّن أمامه استفهامات دون جواب ، وأن هذه القضايا المطروحة محلولة فى التصور الإسلامى ، ولكنها فى الآداب الغربية من القضايا العسراء وكذلك هى عسراءُ عند شاعرنا العواد .

إرفعى للعلاء عقْلاً يناجى
خالقَ الأرض والسماء بهمْسِ

فكّري والسماءُ تزخَرُ بالأرواح
والأرضُ فى غياهب حَدْس

كيف يلقَى الهوانَ فاعلُ خير
وينال السموَّ فاعلُ رجس ؟

كيف يسمو المقامُ فى هذه الأر
ضِ ، بمن هام دهرُهُ بالتّدسى ؟

كيف تَجْري الحظوظُ مجري الكفا

ياتِ ولا توصَمُ الحياةُ بِمَسٍّ

عُقَدٌ فى الحياة عسراءُ كُثْـــرٌ

آهِ لو تظفــرين منها بحَلٍّ

ومما يؤكد تأثر شاعرنا العواد بالقراءات فى مترجمات الآداب الأُخري قصيدته التى قدم لها بمقدمة نثرية طويلة ذكرفيها أن الأُستاذ عباس محمود العقاد قام بترجمة نثرية لقصيدة الشاعر الإِنجليزي شارل ماكى التى نظمها على أَساس فكرة إِحدى الأَساطير اليونانية بعنوان « كلهم سسيفوس » وهو يصوغها شعراً تحت عنوان (عبث) ومنها فى حديثه عن سسيفوس قوله :

ولقـــد يرفــع طــرفا للسماءْ

يسأَل الاعفــاءَ من بَرْحِ الأَلمْ!

فيُطِلُّ النجــمُ أَو ترنــو ذُكاءْ

فى اكتئابٍ قائلٍ مِنْ غير فَمْ :

أَيُّـهذا المبْتـلَى هــذا العنــ ـاءُ ، عيشٌ في عبثٍ في عبثِ !

* * *

ولقــد تَذكُرُهُ تلكَ الــرءُوم

أُمُّهُ الأَرضُ وهل تَنْسى بنيها ؟

هي أَلقَتْه إلى وادي الهمومْ

، وهى لا تأْنَفُ أَن يتعَسَ فيها

فهى مِعطـافٌ على هــذا الكليم

، عبــثًا في عبثٍ في عبــثِ

ولا نستطيع أَن نورد من أَبيات القصيدة أَكثر مما أَوردنا ، لأَنها فى الواقع قائمة على أَساس أُسطورة يونانية قديمة ساقها العوّاد نثراً فى مقدمة القصيدة ، والأَساطير اليونانية كما نعلم قائمة على الأَفكار الوثنية ، وهذا السبب نفسه هو الذي منع الأَجداد قديماً من الإِيغال فى ترجمة آداب اليونان ، وجعلهم يكتفون بترجمة علومهم وبعضٍ من فلسفتهم وحكمتهم .

ولشاعرنا العوّاد قصيدة بعنوان (مع البدر) تحدث فيها إلى البدر حديث العاشق الولهان ، واستوحاه كثيراً من المعانى الرقيقة الموشحة بغلالات من الفلسفة والتأمل وقد قسم هذه القصيدة إلى جزأين ، وجعل عنوان الجزء الأول : إلى البدر فى الغيمة ، وعنوان الجزء الثانى : إلى البدر بعد الإنجلاء ، ونوع فى قافيتها وأبدع .
يقول فى الجزء الأول :

قلت للبدر حينما برقع الغيمُ
مُحيّاهُ واعترتْهُ الكآبه

أنتَ أنتَ المنيرُ فى أُفُقِ القلْ
بِ ، وفى الجوِّ رغم هذِي السحابهْ

إنّ وحيًا أَشعَرْتنيه لَوحْىٌ
طرقَ القلْبَ فاتحًا أَبوابَهْ

أَنتَ أَنتَ الجمالُ يَسري إلى النف
س ، فيوحى عذْبَ الغرامِ وصابَهْ

أَنتَ أَنتَ الذي يبـدِّدُ بالحسْنِ
غيـوماً خدَّاعـةً كذّابـة

أَنت يا بدرُ فى الوجـودِ حياةٌ
ثـرَّةٌ بالسعـادةِ الوثّابـهْ

فلا تبتئسْ فى خـلالِ الغيومْ
إذا جلّلتْـكَ فإنّ النجـومْ
حـواليْكَ فائقـةُ المنظَـرِ
تزيـدُ بهـاكَ على الأَعصُرِ
وحسنُـكَ فينـا مقيمٌ مقيمْ

وبعد تغزله بحسن البدر وجماله اللامحدود وهو يوشّى أطراف الغيم الذي يبدو كبرقع على وجه حسناء رائعة الفتنة بارعة الجمال ، يعود ليتحدث إليه بعد انحسار تلك الغيوم فيقول :

يا بدرُ ويحكَ خابَ سعْيُكَ فى الحياة أَم ِ انبَرَى

وعرفتَ ما سرُّ السياحةِ في سمائك والسُّرَي
أَم أَنتَ طوّافٌ جَهولٌ في سياحته مقيم . ؟

ويختم القصيدة بحشد كثير من الأَفكار التي قد تشغل كثيراً من الأَذهان وتكوّن أَمامها سيلا من الاستفهامات الحائرة ، وما أَجمل أَن يجعل الشاعر من حديثه عن الطبيعة ذريعة لطرح القضايا الفكرية ويضمن بعد ذلك كله أَلا يتورط في النثرية المبتذلة أَو الأُسلوب العلمي الجاف ، بل يظل محافظاً على رواءِ الشاعرية وبهاءِ التعبير :

بدرٌ يَبينُ ويختفي ونُهيً تحاول أَن تسودْ
وخلائــقٌ يتــذمّرون وآخرون على رُكود
والعــالَم الــدّانِي يدور بِلَيْــلِه ونهــارِهِ
والعــالَمُ القاصي يظــلُّ بسترِه وقَــرارِه
والعقلُ في طبقاته ، والعلْمُ في خُطُواتِه
والروحُ في لَفتاته ، والكونُ في حَركاته

والله ينظمُ هذه المتجانساتِ كما يشاءُ

ويسيِّرُ الدنيــا إلى حيث الفنــاءُ أو البقاءُ

نزوع العواد إلى التجديد ظاهرة فى كافة أشعاره ، وكأنما أراد أن يعطى من نفسه النموذج لمعاصريه ولمن يأتى بعده من شباب هذه البلاد ، بحيث لم يكتف بالتخلص من رتابة القافية كما رأينا فى النصوص السابقة ، بل نراه أيضاً ينظم بشعر التفعيلة محافظاً على مستواه الفنى ، ومن ذلك قصيدته (المثل الأعلى) التى قدم لها بقوله : لكل إنسان مثله الأعلى فى الحياة ، يراه فى صفة أو مجموعة صفات سامية ممتازة ، أو فى فكرة أو خطة أو عمل ، واختص المثل الأعلى للشاعر بالتجسيم فخاطبه كشخص فقال :

يا حبيبى . .
أبداً فى كل ظرف يتحوّرْ

فى ضجيج الصبح فى همس الحياة الهادئْ

فى غمارِ الجد ، فى سعْى الحياة الهازئْ

أنتَ فى الغيمِ وفى القلب مصوَّر
غير منسِى . . .
أفتــدري ؟
والدرايات كثيراً تتبلْور . . .
أننى ألقاكَ فى طيف خيالى الطاريْ
وعلى أشباح فكري إذ أُفكّرْ
وبنفــسى . . .
فاقتربْ منىَ . . يا نجوى فؤادي كل لحظهْ
واسكبِ القدرة فى الروح ولا تنقصْه حظه
وتقدمْنى بأضــوائك فى مجــرى الوجودِ
وانصب الرايــة للحائر فى ذاك الصعيــدِ
ولنجــاوزْ
مسخاً تمعــن فى الإسفاف فى هــذا الكفاحِ
ولنحـــاذر
بين من يفعل مخفيًّا وذي الفعل الصُّــراحِ
ولنساير . . روعة الدنيا بإقــدام الجريء
ولنعضــدْ مُحسِــن الفعلِ ونَرثى للمسيء

ولنجـــدذ صرحنا المبنيَّ في ساحة قُدْسٍ
حيث تسري تحته الأَطيافُ تختار التأسِّي

وبعد فإنه إذا كان اقترن اسم طه حسين بكتابه (في الشعر الجاهلي) ، واقترن اسم زكي مبارك بكتابه (النثر الفني) فإن اسم شاعرنا العواد يقترن في أذهان دارسيه وعارفي أدبه باسم كتابه (خواطر مصرحة) فهو من أعماله الكبيرة الجديرة بالتقدير ومرحى للعواد شاعراً وكاتباً ومفكراً كبيراً رائداً سوف لا تنساه ذاكرة التاريخ . .

عبد الله بن إدريس

شاعرنا عبد الله بن إدريس من مقاطعة « سدير » وهى منطقة أنجبت كثيراً من الرجال لهذا البلد العريق فى جميع المجالات ، وعلى وجه التحديد كان شاعرنا من مواليد « حَرْمة » عام ١٣٤٩ هـ ، وهى قرية يذكر أمين الريحانى أنها عرفت الحياة منذ عدة قرون ، وهى لا تقل فى عمرها الزمنى عن مدينة المجمعة عاصمة الاقليم. وهو الآن من البارزين فى المجلس الأعلى للآداب والفنون بوزارة المعارف ، ويشترك بقلمه فى عديد من المناحى الأدبية فى جميع المناسبات ، وهو يذكر فى ترجمة حياته التى كتبها بنفسه فى كتابه (شعراء نجد المعاصرون) بعد أن تحدث عن حياته الوظيفية ، يقول :

« ثم . . . لا شىء أستطيع أن أقوله عن مجريات حياتى غير ما سبق ، سوى أن أذكر أنه كان لديّ مجموعة من الشعر الجديد ـ شكلا ومضموناً ـ ولم يسبق أن نشرت فى الصحف شيئاً من هذه المجموعة ، اضطُرَّ

لأسباب نفسية خاصة أن يحرقها ، و ن خلال كلامه هذا نستطيع أن نعرف أنه لم يكن يسارع إلى نشر أشعاره فى الصحف ، إما لكونه من الذين يؤثرون العكوف على أشعارهم يتناولونها بالتهذيب والتنقيح ، ضنا بها عن مواضع الخطل والإنزلاق ، وهم الذين عرفهم تاريخنا الأدبى بعبيد الشعر ، كزهير بن أبى سلمى ، والحطيئة ، وسويد بن كراع وغيرهم . وإما أنه كان لفرط رهافة حسه يتحاشى النشر خشية من التعرض للنقد . فقد أشار بعض النقاد إلى نوع من الشعراء يتحرجون من قراءة أشعارهم ، ويتحسسون كل همسة أو إشارة قد تبلو من بعض الحاضرين ولو كانت غير مقصودة ، ولعل هذا التفسير الثانى وهو رهافة حسه هى التى عرضت هذه المجموعة إلى الإحراق فى ثورة نفسية من ثورات شاعرنا ابن إدريس ، وهو لا يدري خلال تلك الثورة النفسية أية خسارة أدبية تترتب على إحراق تلك المجموعة التى قال عنها : إنها كانت تضم كثيراً من الشعر الجديد شكلا و ضموناً ،

وهو يعترف بتلك الخسارة حين يقول « وسريعاً ا ندمت ندامة الكسعى ، ولات ساعة مندم » .

ونحن هنا سنحاول تقديمه من خلال ما وصلنا من شعره الباقى ، وهو فى مجموعه ينم عن روح شاعرة وريشة مبدعة ، ومن ذلك قصيدته التى بعنوان (فى زورقى) والتى قدم لها بقوله « إلى كل من لا ترهبه سياط القوة عن الثبات على الحق ، والاحتفاظ بعزة النفس والمثل العليا ، وإلى كل من لا يحنى رأسه إلا لله . . أهدي هذه الحروف » . يبدؤها بقوله :

ربّاه بلغ بالسـلامة زورق الحلُم ِ الجميلْ
فهنا أَعاصيرُ الشقاءِ تفح من خلف الأَصيل
وهنا شراعى لامس الموج المجنّح فى ذهول
وتلفّتَ القلبُ الشجى فهاله الأَمسُ الثقيل
فإلى الأَمان . . لشاطىءٍ يتنسم الريح العليـل

* * *

لعب الخصمُّ بزورقى فطغى على مجرى الشعور
أَفما اطّلعت فخلتنى كالطير فى كف الصغير ؟

إن كان ذاك فإننى ما زلتُ أحلم بالعبــور

إنّ العبور إلى الأمان لَخطوةُ الشهمِ النبيل

رباه بلغ بالسلامة زورقَ الحلُم الجميل

لا شك أن التجديد متمثل فى هذه القصيدة من حيث الشكل والمضمون كما حدث هو عن نفسه ، أما من حيث التجديد فى الشكل فيبدو واضحاً فى المراوحة بين القوافى والتعبير غير المباشر المعتمد على التصوير والإيحاء . وأما التجديد فى المضمون فيظهر من التعبير عن هذه الحالة الشعورية الذاتية التى تتجلى فيها ظلال الرومانسية بوضوح ، ويُعطى لشعره سمة المعاصرة . وهكذا يوالى الشاعر سبحاته فى خضم الآلام والصراع فلا يستسلم أو يكتفى بالبكاءِ والشكوى ، بل يواصل الرحلة فى ثقة وإصرار فى زورق الشمم والإباءِ فيقول :

ورنوت للأُفق البعيدِ إلى الكرامة والسَّماح

لا ضير أنى أرتئى شَقَّ المصاعب بالكفــاح

وهنا عطفتُ بزورقى فجريِ على كفٍّ الرياح
والحرُّ يمقت عِيشةً يبــقَى العزيزُ بها ذليــل
رباه بلغ بالسلامة زورق الحــلم الجميــل

وهو فى كفاحه مؤمن يلجأُ إلى ربه ، ولا يذهب به التمرد فى متاهات الضياع ، كما يفعل بعض الشعراءِ الذين لم ترسخ فى نفوسهم العقيدة والإيمان الوثيق ، ففنه منطلق من تصور إسلامى عريق . يقول :

مِلكَ السما والأَرضِ هل من قادر يرجو العباد
إلاّك ، فى دفع المكاره والظُّــلاماتِ الشِّداد ؟
إن البغاث استنسرتْ بل جانبتْ سبلَ الرشاد
ونعيمك المدرارُ قد يُعلى الحقيرَ على الجليل
رباه بلغ بالسلامة زورق الحــلم الجميــل

ومع تقديرنا لهذه القصيدة ، فإن ذلك لا يمنعنا من أَن نشير إلى أَن كلمة أَرتئى فى قوله (لا ضير أَنى أَرتئى شق المصاعب بالكفاح) كلمة غير شعرية ، بل هى كلمة يستعملها عالم فى نقاش أَو موظف فى

عرض آرائه . كما أننا نأخذ عليه جعله الريح عليلا في قوله (فإلى الأمان لشاطئ الريح العليل) ولا نظن أن من الرياح ما يكون عليلا ، بل إن ذلك الوصف المنعش عن خصائص النسيم ، هذا علاوة على تذكيره الريح وهى مؤنثة . وما ذكرناه لا يغض من القيمة الفنية للقصيدة التى نحا فيها منحى التجديد ، ومثلها قصيدة (سلوان) التى يقول فيها :

يا سارقَ الأحلامْ   من بين جفْنيّا
وزارع الأسقام   من نبع عينيا
طُفْ بى مع الأنسامْ   فى الروض والزهْرِ لعلنى أسلو
رجِّعْ أغانينا   فى نشوة الروحِ
واندُبْ أمانينا   بلحن مجروحِ
واذكُرْ مغانينا   فى هدأة الفجرِآهِ متى أسلو؟
يا لوعةً حرّي   فى قلبىَ الباكى
أوقدتِها جمْرا   بلحنكِ الزاكى
فاستوجبى أجْراً   وسرِّحى فكري فربما أسلو

فهنا نجده قد اعتمد في التوزيع الموسيقى على نمط شبيه بالأشكال التى سار عليها الأندلسيون وعرفها الناس بالموشحات ، لخفتها وحسن توشيتها وجمال إيقاعها ، فليس فيها رتابة القصائد الموحدة القافية ولا ثقل البحور ذات التفعيلات المزدحمة المتراكمة :

ها أنتِ يا قلبي ومُجْتلَى فكري
وقفتِ فى دربى لِتُوثقى أسري
بثغرك العذبِ ولَحْظِكِ السحري
فالآن لن أسلو

يا وردةً عذرا لم يَجْنِها جانٍ
شممتُها عطرا قد هاج أشجانى
اعدتِّ لى ذكري مضت من العمْرِ
فالآن لن أسلو

ولشاعرنا ابن إدريس قصيدة غزلية أخرى بعنوان (معذِّبتى) قدم لها بقوله : (كانت تنظر إلىَّ خلسة وتشيح بوجهها الصبوح حينما أُبادلها النظرة المعبرة . فاليها أُقدم هذه الكلمات) ، ولعل هذا الإهداء يوحى

لنا بعدم اصطناع الموقف ، ويبعد عن أَذهاننا أَن تكون التجربة التى تضمنتها مختلقة أَو خيالية ، وذلك ضرب من الصدق الذي يعتبر من أَهم ركائز العمل الفنى الناجح . يقول ابن إدريس :

بعينيك مجْلَى الرؤيِ الحالمة
وخداك كالوردة الباسمةْ

وبينهما قلبى المجتلى
جمالكِ ذا النفحة الفاغمة

يجول كطيرٍ مهيضِ الجناحِ
ليفلت من قبضةٍ صارمة

وأَنىَّ له فكٌّ هذا الإسارِ
وأَنتِ على بابه قائمة ؟

أَنا بكِ دون العذارَي معنًّى
وأَنتِ بهجرك لى : ظالمة

وقفتُ عليك الفؤاد الجريحَ
وأَتبعتُه عينيَ الساجمة

أَلا فاطمئــنى لهــذا الــودادِ
سيبــقَى إلى دارنــا القــادمة

وما الحب إلا ابتسامُ الحيـــاة
وإلا ائتــلاقُ المــنَى الناعمــة

وهى قصيدة مليئة بالأَحاسيس لم تهتم بالناحية الحسية كثيراً ، وإنما اتجه فيها إلى سكب المشاعر والأَشواق ، ومتى كان الحب كذلك : لم تدنسه الجوانب الأَرضية ، ولم ترنِّق صفوه آثام المادية العاتية ، بل يعيش طاهراً شفافاً كقطرات الندي وصفحات الصباح الأَنيق .

وفى قصيدة أُخري للشاعر بعنوان (من نهج الحياة) يقع فى خضم الحيرة والصراع ، وتنصِبُ نفسه من ملاحقة غايات الحياة ، ولا يجد السكينة والطمأْنينة إلا فى رحاب الله والتسليم للأَقدار . يقول :

أَملى الظامئ فى هــذى الحيــاة
كيف يُروَيِ تَوْقُ كونى من نداه

عالمٌ يجري . . خضمٌ زاخـــرُ

قد تناءتْ عن خيــالى ضَفّتــاه

ليس يدري إذ غــدا مرتميــا

فوق أحضــان تضاريس الحياة

أيَرَى الكــون جمالا باسمــا

ينشر الحق . . ويحمى منتداه

أم هى الدنيا شقــاءٌ وعَنَــاءْ

سيما والشهــمُ مزورٌّ الــرِّفاه ؟

لست أدري غير أنى أرتضى

قسمــة الحق ومقــدورَ الإلــه

وكثيراً ما نراه يعزف عن المظاهر المادية فى الحياة ، وينحو باللائمة على أولئك المتهافتين على المال ، غافلين عن واجباتهم الإنسانية كمواطنين صالحين ، عليهم أن يقدموا الخدمات المتوقعة منهم إلى أوطانهم فى الوقت المناسب ، فخدمة الوطن واجب مقدس مقدم على المصالح الشخصية . يقول :

أَنا لا أَحفل من دنيا الغنَى

بمنالٍ ليس رفّافَ السناء

أَو بجاه ليس يبقى خالداً

فى سجلّ المصلحين الأَقوياءِ

لا يرَوْن المالَ إلاّ آلةً

تصهر الشعب بروح الافتداءِ

إن قوماً قدّسوا المال لفى

جهلهمْ قد عارضوا أَمرَ السماءِ

همهمْ جمْعُ حُطام زائل

ذاك هَمٌّ الجاهلين الأَغبياء

وإذا كان المال والجاه لا يعطيان للإنسان القيمة الحقيقية إلا إذا جعل منهما آلة لخدمة المجتمع ، فإن من الجهل أَيضاً أَن يعتمد المرءُ على مفاخرته بالأَحساب

والأنساب ، فذلك ينافى الإسلام ويتعارض مع الفكر المتحضر . إنَّ المجادةَ الحقيقية تكمن فى الاستعداد لتحقيق الأهداف ومسابقة السنين وخدمة الآخرين .

وشاعرنا ابن إدريس يعالج بهذا مشكلة من أخطر المشاكل الاجتماعية التى كانت تنخر فى جسم الأُمة وتُهدِر كثيراً من الجهود والامكانات وتضيع كثيراً من الفرص والطاقات . تلكم هى مشكلة الاعتماد على الحسب التالد دون أن يضيف الإنسان إليه مجداً طريفاً ، والتهوين من أحساب الآخرين وأنسابهم واعتبارهم فى منازل أقل شأناً ، وهو منطق ما أنزل الله به من سلطان ، وما أروع قول الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الشأن : « كلكم لآدم وآدب من تراب » وما أروع قول الله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ومنه قول أبى العتاهية :

وإذا تناسبتِ الرجالُ فلا أرى نسباً يفيد كصالح الأَعمال

يقول ابن إدريس :

لا تقل : ذاك أَصيل أَو هجين
فكِلَا النوعين من ماءٍ وطين

إنما المجدُ لشهمٍ نابهٍ
أَبدًا يطمع فى سبْقِ السنين

يسكب الأَنوارَ من مشكاته
فى صدور الحائرين البائسين

لِيَريِ الساري إلى آفاقه
موكبَ المجدِ ومغنى الطامحين

فهذه الأَبيات تعتبر دعوة صريحة لتغيير مفهوم اجتماعى كان سائداً ومسيطراً على النفوس منذ غلب عليها الجهل وابتعدت عن الائتمار بالدين . وإنها لشجاعة أَدبية نسجلها لشاعرنا ابن إدريس يستأْهل عليها التقدير .

ويستمر فى استنهاض الهمم والدعوة إلى العلم وتحقيق المجد بالكفاح والمثابرة ، وإقامة الرتب الاجتماعية على العمل الحر والنجاح فى خدمة أفراد المجتمع ، دون نظر إلى حسب أو نسب . يقول :

وأخـــو الجهل رتيبٌ حائـــر
ومع الجهل قناطيرُ الغــرورْ
هكذا الدنيـــا وذي أَحكامهـــا
فى بنى الأَرض إلى يوم النشور
وثْبَـــةُ الـــروح بفكـــر نيِّـــرٍ
صفحـــةٌ ليستْ تواريها الدهورْ
فاطْرقِ البابَ إلى أَسمى المـــنى
وانتظر بعد دياجى الكون نـــورْ

ولشاعرنا ابن إدريس مشاركات كثيرة فى الأَحداث العربية التى تجري فى مختلف أَرجاء بلاد العروبة ، فهو يكتب عن فلسطين والجزائر وبور سعيد وغيرها ، ومن ذلك قوله فى حرب بور سعيد :

حقــدٌ أَمضَّ قلوبَهمْ وسُعارُ
فتـــآمروا فتجلّـــتِ الأَســـرارُ

ضاقوا بوعْى الشرق إِذ نفَضَ الكرَي
واستنهــضَ المستعبــدين فثـــاروا

ومضى يحطِّم جاهــداً أَغلالَهُ
وعليــه من أَمل النجاح شعار

لا العسفُ يوهنُ من رَباطةِ جأْشه
فشعـــاره الإِقـــدامُ والإِصـــرار

أَبداً ولو ملأَ الوهادَ نجيعُـــــه
لا ينثـــنى أَو يعتـــريه فِـــرار

أَبناءُ يعرُبَ كابِرًا عن كابرا
صُبْرٌ على الهيجـــاءِ وهى تُـــدار

فسلوا (القناةَ) تجبْكمو أَعماقُها :
إِنَّ الغـــزاةَ بقعرها قد صاروا

وسلوا مدينة (بورْ سعيدَ) فعنْدها
ركع الطغـــاةُ أَمامها وانهــــاروا

إنها بلا شك روح وطنية وثابة وشعور عربى نبيل ، يتدفق فى حرارة وقوة ، ويؤمن بأن ديار الإسلام والعروبة وإن فرقها المستعمرون هى الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . . .

* * *

حمزة شحاتة

شاعرنا حمزة شحاتة أديب واسع الشهرة بعيد الصيت ، معدود من الرواد ورجال الرعيل الأول فى دنيا الشعر والأدب فى هذه الديار ، جمع بين الشعر الرصين والمقالة الناضجة والبحث القيم والنقد القائم على كثير من المنهجية والدراسة الموضوعية المستأنية ، عرف بين أقرانه بالدعوة إلى التجديد والإبتكار والصراحة فى القول ، وأسهم بمحاضراته العديدة فى الدعوة إلى الفضيلة والإصلاح الاجتماعى ، فجمع بكل أؤلئك بين الفن والفكر فى آن ، فلم يعش شاعرنا مهوماً فى خيالاته متدثراً بأحلامه ، يصمّ آذانه عن الفكر وقضاياه ، ولم يكن مفكراً متزمتاً ملك عليه العقل زمامه ، فلم يعد يقيم للعواطف والنواحى الفنية وزناً ، بل أعطى لكل شىء حقه ، وقدم لكل مقام مقاله ، فاحتل بذلك بين لداته مكانة خاصة وقدراً مرعياً .

وكان يؤمن بأخلاق الرجولة وبالشباب والعنفوان ، ولذلك نراه يلقى محاضرة بعنوان : (الرجولة عماد الخلق الكامل) فى ندوة الإسعاف بمكة ، كما أنه تحدث فى بعض قصائده عن الشباب فى قوة وحرارة وإيمان ، فقال :

مَنْ للغلابِ سوى الشبابْ ... إذا تكاتفت الصِّعاب
المُوفضين إلى الوغىَ ... يتواثبون على الرقاب
والسابحين على العُباب ... يغالبون قُوَى العباب
والراقصين على الثَّري ... والطائرين على السحاب
الصاخبيـــن اللاعبيـــنَ ... الباسمين على العذاب
يتلهّبون على الصراع ... تَلَهُّبَ الأُسد الغضاب

وهى قصيدة قوية الجرس جياشة العاطفة ، تؤمن بدور الشباب فى مواجهة الصعاب وخوض غمار الحروب والذود عن الأَوطان ، ورغم أننا لم نتعرف على مناسبتها ، إلا أَننا نستطيع أَن نستشف من خلال قراءتها أَنها نظمت فى مناسبة وطنية هامة ، فهو حريص فيها على إنقاذ الحضارة ، متعلق بالنصر ، يقول :

يا منقذي شرَفَ الحضارةِ ... أن يذلّ وأن يُصاب

شرَفُ الحضارةِ دون هيكلها ... أَحـقٌّ بأَن يُهـاب

فلتدفعوا عنه النقيصة ... بالفنـاءِ وبالخـراب

فالمجدُ للحرِّ المظفّـر ... لا لممتلىءِ الوِطـاب

أَغلى المباديءِ ما أَقـام ... الحقَّ محميَّ الجَناب

النصر يا هِمَمَ الشبابِ ... جَنَى السواعدَ والحراب

سيروا على سَنَنِ القنا ... فأَمامكمْ ظَفَرُ المـآب

خوضوا الضبابَ ستنجلى ... عن فوزكم كسَفُ الضباب

ولد حمزة شحاته بمكة المكرمة ١٣٢٨ هـ ، وفجعت دنيا الأَدب بموته سنة ١٣٩١ هـ وهو خريج مدارس الفلاح بجُدة ، حيث كان قد انتقل إلى عروس البحر الأَحمر صغيراً وفيها ترعرع وتأَدب ، وقد عاش وفيّا لجدة طيلة أَيام حياته محباً لها ، مؤثراً الحياة فيها ، لولا ظروف العيش وتقلب الأَيام ، وقد صاغ حبه لها شعراً فى قصيدة تعد فى رأْيي من أَروع شعرنا الحديث وأَعلاه قدراً ، وأَرفعه مقاماً . وهى بعنوان « جُدة » :

النُّهى بيــن شاطئيكِ غريــقُ
والهوى فيك ، حالمٌ ما يُفيــق

ورؤى الحبِّ فى رحابك شتّى
يستفزّ الأَسيــرَ منها الطليــق

ومعانيك فى النفوس الصدياتِ
إلى رَيِّها المنيــع ، رحيـــق

إيه يا فتنــةَ الحيــاة لصبٍّ
عهدُه فى هواك عهدٌ وثيـــق.!

سحرَتْه مَشــابِهٌ منكِ للخُلْـــد
ومعــنى من حسنــه مســروق

إن القارئ يحس وهو يقرأ الأَبيات ، أنه إزاء شعر ساحر وشاعر فنان ، يحول الكلمات بين أنامله إلى ضرب من النغم الحالم واللحن الشجى ، الذي يحرك الأَعطاف ويخالط النفوس فيملؤها طرباً وسروراً. وحتى الخطأُ اللغوي الذي وقع فى المطلع وهو : اعتباره كلمة نُهى مفردة ، بينما هى جمع نُهية ، حتى هذا

الخطأُ سترت عليه سحب الجمال الملونة التى أضفتها ريشته المبدعة على الأَبيات ، ثم يقول لجُدة :

كم يكر الزمان متئدَ الخطْو
وغصنُ الصِّبا عليك وريق
ويذوب الجمال فى لَهبِ الحبِّ
إذا اعتيدَ وهو فيكِ غريق
تتصبَّبْنَى بـه فى دُجَى الليل
وقد هفهفَ النسيمُ الرقيق
مُقبِلا كالمحبِّ يدفعه الشوقُ
فيَثنيه عن مُناه الخُفوق
حملتْه الأَمواجُ أُغنيةَ الشَّط
فأَفضَى بها الأَداءُ الرشيق
نغماً تُنعش القلوبَ حُمياه
فمنه صَبوحُها والغَبوق !
فيه من بحرِكِ الترفُّقُ ، والعُنْفُ
ومن أُفقِكِ المَدَي ، والبريق

ومن الليلِ صَمْتُـه المفعِـمُ النفسَ

لُغىً زانها الخيـالُ العميـق

ومن البـدر زهْـوُهُ وسنـاه

راوياً عنهمـا الفضـاءُ السحيق

قطعة فذّةٌ من الشعر ، قد ألّـ

ـف أشتاتها : نظام دقيـق

إن حمـزة شحاته رسـام بالكلمات : فالزمان متئد الخطو ، والصبا ذو غصن وريق ، وللحب لهب يذيب الجمال ، والنسيم يهفهف مقبلا إلى جدة بلهفة : كإقبال المحب يدفعه الشوق فيخفق قلبه خوف الرقيب ونحوه فيقصر من خطاه ، ولهذا يأتى نسيم جدة لطيفاً رخاءً كأصداء أغنية رقيقة تحملها الأمواج الهادئة إلى الشاطىء الجميل ، يأسر الأفئدة وينعش السمار .

ثم يقـول :

أنتِ دنيا رفافةٌ بمعانى الـروح

وكـونٌ بالمعجـزات نَطـوق

رضِيَ القيــدَ فى حماك فؤادٌ
عاش كالطير ، دأبُــهُ التحليق

ما تصبَّتْه قبل حُبِّــكِ يا جُدَّةُ
دنيــا بقَيْــدِها وعشيــــــق

حبــذا الأَسْرُ فى هواكِ حبيبًا
بِهَوَي الفكرِ والمُــنى ما يضيق

منهجى فيه منهجُ الطائرِ الإِلْفِ
ينــزو به الجنـــاحُ المشوق

فإذا همٌ أَشغلتـــه فُــروضٌ
من هــواه ، وأثقلتـــه حقوق

وهكذا يمضى فى نشر مشاعره نغماً ساحراً وكلماً ندياً . والحب يحول كل أشياء الحبيب ذات معنى ودلالة فى نظر المحب ، ويضفى عليها قيمة وجلالا مهما كان نصيبها من الواقع ، فيسعد بها ويعيش من أجلها ، ويناجيها فى الأَصائل والبكور ، وترفرف عليها روحه مع همسات الأَسحار ، والفنان الناجح هو ذلك الذي يستطيع أن ينقل نظرته إلى الآخرين ،

وتسري من نفسه إليهم فى رفق ويسر ، فتقع من نفوسهم موقع الرضا والتسليم .

ولا نقصد من هذا أن حمزة شحاته قد سلك سبيل المبالغة فى حديثه عن جدة ومنحها أهمية لم تكن لها ، وإنما نريد أن نشير إلى صدقه وتوفيقه ، أداءً وتناولا وتصويراً ويبدو أن حظه فيها لم يكن يرضيه أحياناً ، لذا نري ملامح الشكوي المرة تطفو على الصورة فى آخر القصيدة ـ حيث يختمها بقوله :

كم مُعنّى مثلى يطـارحُكِ الحبَّ
فينبــو به السبيلُ الزليــــــق
ودَعىٍّ يصطَكُّ فى فمــه القولُ
عِثــاراً ، مكانُــهُ مرمــوق
أَمِنَ العــدل أن يشاكلَــنى فيك
جبــانٌ ، عمــا أريــغ فَــرُوق
لا تلــومى على عتــابِكِ حرًّا
قلْبُــهُ منك بالجــراح شَريق

أنا للحب ، والهوى يؤثر العزّ

وغيري لغيرِه مَخلوق

والغرامُ المباحُ ، شَرُّ الجنايات

فهل يُقْنِعِ الجمالَ النزوق

ولحمزة شحاتة أشعارٌ أخرى تتسم بالروح الفلسفية ، غير أن أصالته الفنية وقتْها من أن تتحول إلى المجال الفكري الخالص ، فحافظت على روائها الأدبى ، مع التركيز على الناحية التأملية ، وينجلى لنا هذا الاتجاه فى قصيدته (الليل والشاعر) التى مطلعها :

يا شاعرَ الكون وفنّانَهُ

وعبقريًّا صاغ ألحانَهُ

وعاشقاً أوطأه قلبُهُ

مخاطرَ الحبِّ ونيرانَه

جافَى الهوَى ، لا خائباً عندَهُ

وإنّما أنكر ميزانه

لم يسأمِ الحسنَ ولا وحْيَهُ

ولا اجتويَ الحبَّ وأشجانه

لكنــه – والطهــرُ مأمــولُه –
عــاف دنــاياه وأدْرانـــه

فهو شاعر يؤمن بالحسن الموحى ، والحب الشريف الخالى من الأدران ، وهو تسام بعاطفة الحب وأفلطونية رعاها بعض الاثينين قديماً ، واشتهر بها كثير من الشعراء العُذريين فى عصر بنى أمية « كثيّر ، وجميل » .

يخاطب الليل بقوله :

يا آسيــاً ضــاقَ بأوجاعــه
ومُسعِــدًا آثــرَ حرمانـــه
كم ساخطٍ زايلَـــهُ رُشْـــدَه
مستيئســاً ، أسكَنْــتَ بُحرانَه
وموجَــعٍ متّقــــدٍ قلبُـــه
مضــاضةً ، أطفأْتَ بُركانــه
وعاشــقٍ يخفــق فى صـــدره
قلبٌ ، يهــد الوَجْـدُ أركانَه
بادرْتَــه بالهاجـــرِ المــرتجى
فى أمل ، آنــسَ وِجــدانَه

وأمٍّ طفل ـ أنّ فى حِجْرِها
تُحسُّ كالسهم إرنانَه
تَرأَمُهُ ، تلحَظ أنفاسَه
مذعورةً ترهب فقدانه
أهديتَه النومَ رفيقاً به
فقرّ ساجى الطرفِ وسْنانَه

وتلاحظ أن نظرته إلى الليل نظرة متفائلة ، فلم يجعله مصدر آلام وأوجاع ، كما اعتاد كثير من الشعراء ، بل جعله آسياً للأوجاع ، مطفئاً للآلام ، مسكناً للحيرة ، رفيقاً بالعشاق ، واهباً النوم للموجوعين ومن هنا نستطيع أن نلقبه بشاعر التفاؤل . وهى ظاهرة جديرة بالملاحظة ، وبخاصة فى هذا العصر الذي تشعبت مسالكه وطغى عليه القلق ، والشك فى إمكانات المستقبل ، وعدم الارتياح للواقع ، نتيجة للتوتر الذي يسود أكثر مناطق العالم ، وتسري منه العدوى إلى جميع الآفاق .

يقول شاعرنا حمزة شحاتة مخاطباً الليل :

يا ليلُ . . يا ليلَ الهوى والـرؤى
يا ملتقى الفـنّ ، وديـوانَـه
ويا شُعاع السحْـر ، يا نبعَـــهُ
ومِشْعَـلَ الفكــر ، ورُبّانَــه
يا نافِثَ الفتنــةِ ، رفّافــةً
وعبقــرَ الشعــرِ ، ودهْقــانَه
تلقّــن المطــربَ ألحــانَه
وتلهــم الشــاعرَ أوزانــه
رداؤك الأَســـودُ ملقٍ على
الدنيــا رؤى الحسنِ وأفْنــانه

وهكذا يمضى فى مناجاة الليل ويطيل النفَس ، بحيث تبلغ القصيدة ثمانين بيتاً .

ومن الفقرات التى تظهر فيها نزعة التفاؤل بجلاء قــوله :

فرُبَّ نقْـص فى جمــالٍ غدًا
نشيـــدُه الحـــبَّ ولُقْيــانَه

طاب به الحسنُ وطابَ الهوي

وأبـدتْ نجـــواه إعلانَـه

والنقصُ فى الكـون كمـالٌ له

يحـدو إلى الغـاية أظعـانَه

وبعد محاورات عديدة فى أمور الكون المختلفة مع الليل ، يصل فى آخر القصيدة إلى موضوع الدين ، ويرتفع صوته معلناً أهميته لعلاج مشاكل العالم جميعاً ، وأنه فوق الحجى ومطارحة الرأي ، لأنه من عند الله ومن أفضاله التى فتّح بها بصائرنا ، وقوّم عليها سيرنا فى هذه الحياة :

يا ليلُ . . لا . ! فالدينُ فوق الحجا

فليعْـلنِ الثـــائرُ إذعانَـه

بصيـرةُ الدينِ وهـل غيـرُها

ردّ على الحـائر إيقـــانَه . ؟

تقـودنا للخيـرِ فى حكمـة

تُـروي لهيفَ القلب حَـرّانه

جلّ عُلا اللهِ ، وقـرّتْ بـه
ضمائرُ ، تلهَـمٍ عرفانَـه
فتـؤثر الخيـرَ على ضـدّه
وتستميـحُ اللهَ غفـرانه

وفى قصيدة له بعنوان (سطوة الحسن) ، نلتقى معه فى موقف عنيف ، يعصف بقلوب الفنانين ويرهق أحاسيسهم الرقاق ، موقف الكدر بعد الصفاء والاعراض بعد الإقبال ، قد يملأُ بعض الشعراءُ فى مثل اهذ الموقف الجواءَ ضجيجاً وعجيجاً ، ولوعة وأسى ، وقد يحتفظ البعض بالوقار والرصانة ، وكذا كان شاعرنا حمزة شحاتة هنا ، يقول :

بعد صفْـوِ الهوى وطيبِ الوفاق
عـزّ حتى السلامُ عند التلاقى
يا معافىً من داء قلبى وحُـزْنى
وسليماً من حُـرقتى واشتيـاقى
هل تمثّلتَ ثورةَ اليأْس فى وجهى
وهـوْلَ الشقـاء فى إطـراقى

أيّ سهم به اختــرقتَ فؤادي
حيــن ســدّدْتَهــا إلى أعمــاقى
مسرعاً فى المسير تنتهبُ الخطْوَ
فهــل كنتَ مشفقاً من لحاقى
وتهيّــأْتَ للســلام ولم تفعلْ
فأغريْتَ بى فُضـــولَ رفاقى

وهو يريد من خدنه أن يكون بجانب حسنه ورقة نفسه : حلوَ الشمائل ، رفيعَ الأُخلاق ، فلا يغره حسنه ، ولا يذهب به صلفه بعيداً عن أُصول التعامل والذوق :

هبْكَ أهملتَ واجبى صَلَفاً منك
فمــا ذنبُ واجــبِ الأَخــلاق
كنتَ بالأَمس مسعدي فتغيّرتَ
كثيراً فهل سئمتَ اعتــلاقى
واعتريَ قلبَكَ الملالُ فأَعرضْتَ
فهــلاّ انتظــرتَ يوم الفراق ؟

لا أداجيك والكـرامةُ معـنى
تتجـلّى فى صحـــة الميثـاق
قد يطاق الصـدودُ يوجبه الذنْ
بُ ، وصد الملالِ غيرُ مطـاق

إننا نراه هنا محباً ، لم يذهب الحبُّ عقله ، ولم يغط هواه على تفكيره ، بل هو قادر على المحاسبة والمناقشة وإرسال الحكمة :

قد يطاق الصـدود يوجبه الذن
بُ ، وصدُّ الملال غيرُ مطـاق

وقد قال المتنبي قديماً : (ولا رأيَ فى الحب للعاقل) . ولا ندري فلعلّ هذه التجربة التى تضمنتها هذه القصيدة كانت فى سنىِّ الريِّ والنضج والاكتهال .

وبعد فإن حمزة شحاتة شاعر من أثري البقاع فى أرض عبقر وأكثرها إخصاباً وامراعاً ، ففى كل بيت من شعره رقّة دافقة ورنة صادقة ، وفى كل قصيدة منه لوحة زاخرة بالألوان والظلال ، ماتعة بالفن المونق الرشيق ، فهو شاعر رائد وأديب ممتاز .

حسن عبد الله القرشي

مما قاله الأديب الراحل الدكتور طه حسين فى مقدمة ديوان (الأمس الضائع) للشاعر حسن عبد الله القرشي : « ولقد سمعت بين ما سمعت من الشعراء شعر الأستاذ الصديق حسن عبد الله القرشى ، ولم أكد أسمعه حتى كلفت به ، وتمنيت أن أراه منشورًا يقرؤه الناس فى الحجاز ، وفى غير الحجاز من أقطار الأرض » .

والأمانى تخدع أصحابها أحياناً ولكنها تسمح لهم أحياناً أخري ، ويظهر أنها سمحت لى بشعر الأستاذ الصديق فها هو ذا يهيأُ للنشر . وفى لغة شاعرنا جِدةٌ ويسر يدنيانه إلى الفهم ، ويؤذنانك بأنه منك وبأنك منه . . واقرأ ديوان الشاعر ينبئك فى وضوح وجلاء بصدق ما أقول . وإننى لسعيد بأن يعرف العالم العربى هذا الشاعر المجوِّد ، وعسى أن يكون شعره طليعة رائعة لشعر كثير من زملائه ، فيه كثير من روعة وكثير من تجويد ، ولو لم يكن لهذا الديوان إلا أنه يبشر

البيئات الأدبية العربية بأن مهد الشعر الإسلامى قد استأنف مشاركته فى إغناء النفوس وإمتاع العقول والقلوب لكان هذا كثيراً ، فكيف وفيه فوق هذا كله ما يشوق ويروق ، ويُرضى طلاب الرصانة وعشاق الجمال ؟

وعميد الأدب العربى حين قال هذا عن شاعرنا الكبير القرشى . لم يقله مجاملا ولا ألقاه جزافاً . بل إن قوله كان نتيجة تأمل دقيق فى شعره جعل له من نفسه هذه المكانة ، وإن شاعرنا القرشى فى الواقع لجدير بثناء طه حسين وغيره ، قمين بكل ما كتبه حوله النقاد داخل المملكة وخارجها فقد قدم للمكتبة العربية عديداً من الدواوين الشعرية القيمة التى كان لها الصدي الممتاز فى الأوساط الأدبية ، كما قدم القصة الناجحة والبحث المركّز ، فكان نثره كفاء شعره عمقاً وأصالة وجمالا ، وطبعت كتبه ودواوينه فى كبريات دور الطبع والنشر فى مصر وغيرها ، وكان نافذة صالحة أطل منها الأدب فى

هذه الديار على العالم العربى ، واستطاع أن يثبت وجوده ويقف على قدميه فى ثقة واعتزاز ، ويحدثنا القرشى عن تجربته مع الشعر فيقول : إن من شعره المبكر قصيدة أسماها (ترنيمة قلب) قال فيها :

رقرقى لى الحب أنفاساً من الثغر النضير
تسكب النشوةَ والفرحة فى قلبى الكسير

* * *

وتزفّ الحلُمَ الغاربَ دنيا من شعور
يا لَعَيْنَىّ وقلبى من أفانيـن الجمـال
فجْرُها الدفّاق كم شـع بروحى وخيـالى
يا لعينىّ ، وما تعشـق من فـذٍّ وغال

* * *

صوَرٌ فتّانة ؟ أَم تلك دنيـاك الحفيلة
أَم معانٍ من ذُرَي الفن نمَتْ تشدو نبيلة
فأَمانى تراءتْ ، عبقـريات جميـلة

وهذه البداية المبكرة الجيدة فى الواقع تدل على ما وراءها من أصالة عند الشاعر ، وتشير إلى ما لديه من تكوين ثقافى صافى الينابيع ثر العطاء ، فهو

كالبابل الشادي تنبيءُ أُولى ترنيماته على ما فى حنجرته من شدو ولحون ، وفى ديوانه (البسمات الملونة) يحدثنا بعنوان (البلبل) فيقول :

رنَّحتْـه الرياضُ حسنـاً أَغنَّـا
يُترع النفْسَ سحرُه الغضُّ فنَّا
طائرٌ ملهَـمُ النشيـدِ تفـانَى
بين عِطْفِ الورود يرتاح وَهْنا
رفرفتْ نحـوه القلوبُ تناغيه
فأَشجَى القلوب حين تغنَّى
فهو كالقلْب فى الطيـور الشّ
و ادي ، كم سباها بفنِّـه إذ أَرنَّا
يستفـزُّ النفوس تغريدُه الحلْوُ
ويَسْـرِي فيها حنـاناً وأَمْنـا
تتثنَّى له الغصـونُ افتتاناً
يا لَسحرِ الغصـونِ حينَ تثنَّى

إنه لم يكن يتحدث فى هذه الأَبيات عن أَي بلبل حقيقى ، وإنما يرمز به إلى نفسه ، ويعبر عن

ذاته ، فهو الشاعر الذي غنى أحلامه وآماله : وسكب فنه لحوناً فى أحضان الربيع ، فاهتزت لها القلوب طرباً وتثنت الغصون لروعتها وسحرها افتتاناً ، وإنه لإيمان بالشعر والفن ، قد يُشقى صاحبَه أحياناً وقد يسعده ، ولكنه على كل حال هو القدَر المحتوم للفنان والمسار المرسوم له فى حياته ، لا يستطيع عنه انفكاكاً وبغيره لن تكون له حياة :

رقرِقِ الكونَ جدولاً أيها البـ
لبلُ عذباً ينساب شدْوًا مُرِنّا
وأَفِضْه شعراً يموج ابتكاراً
عبقريَّ الصَّدي ويَرقُصُ وزْنَا
هاتِ من فرحةِ البشاشاتِ ما
شئتَ فقد أَغْنتِ البشاشاتُ عنّا

وفى شعر القرشى لمحات من الحزن الخفى والأَلم المكتوم ، تلمسه حتى فى أكثر المناسبات فرحاً وبهجة ، فهو يقول عن نفسه فى مقدمة (البسمات الملونة) إن الحياة لقَّنتْه أَفانين متغايرة من دروسها ، جعلته

يحس بشيخوخة نفسية تضغط على روحه ، وتسرق أنفاسه ، وتنتقل به كثيراً إلى عالمها الحسير الهامد ، عالم الضباب والكثافة والأشباح ، حيث كل شيء غريب عن أحلامه وخيالاته وأمانيه . ولكنه يحاول وبكل ما أوتى من صبر وصمود أن يتغلب على هذه الشيخوخة النفسية الضاغطة ، وعلى جهام حياته وعبوسها ، فهو يحاول أن يبتسم للحياة ويغالب آلامها ويطوي جوانحه على ما فيها من أسى . يقول بعنوان (نور محيّاك) :

نور محيّاك السنيِّ البديع
مازال يغري بفؤادي الوُلوع
يفعم روحى أرَجًا نافحاً
تنزو له البُشْرى وتهفو الضلوع
كم هبّ والآلامُ محمومةٌ
عاصفةٌ بالنفس عصْفَ الصقيع
وشعّ والأحلامُ مفجوعةٌ
قد عزّها بلسَمُ جرح صديع

ولنا على هذه الأَبيات ملحوظتان : أَولاهما أَن كلمة تنزو هنا غير مناسبة ، وأَفضل منها كلمة تصبو بحيث يصير الشطر هكذا : (تصبو له البشرى وتهفو الضلوع) وثانيتهما : أَنه عدَّى كلمة عزّ ، وهو يقصد عزّ عليها ، حيث اختلطت عليه بالفعل عزّ . بمعنى غلب ، كقوله تعالى : وعزّه فى الخطاب ، ولا معنى للغلبة هنا .

ولا أَدري لماذا اختار الشاعر قافية العين ، وهى لم تسلس قيادها له ، وأَكثرها مستجلب ثقيل الوقع ، أَو داخل ضمن إطار الحشو أَو التطويل كقوله :

هذا دمى المشبوبُ كم وَدَّ لوْ
كان مِدادًا لِلحُونى يَميع
كم صعتها أَقباسَ حبٍّ ند
ضمَّ فؤادينْا سريًّا مُريع

فما هذا الدم الذي يميع مداداً وأَية شاعرية فى كلمة يميع ؟ إن القافية وحدها هى التى تحكمت فى هذا البيت ، وفى البيت الثانى نجده يحذف ياءين

من كلمة نديّ ويعامل ياءَ فعيل معاملة لام الكلمة فقال : ندِ ، بدلاً من نديّ ، وأجبرته القافية أن يأْتى بالكلمة النثرية مُريع ، ويختم القصيدة بقوله :

ورقــرقى النشـــوة فى خافقٍ
يكتَتِــمُ البَــرْحَ حفيًّا مُطيع

كاد يُلاشيـــه رسيسُ الجــوَي
لوعدتٌ حاشا فى الجوي أن يضيع

وكلمة يلاشى من الأَفعال النسبية التى تدل على المفاعلة ، وهو إنما يقصد أن رسيس الجوي كاد يفنى القلوب ويذيبه فالأَثر من جهة واحدة لا من جهتين .

ولشاعرنا القرشى عذره فى (البسمات الملونة) فهو أول ديوان ظهر له ، وذلك عام ١٩٤٧ م ، وحينما نتابع رحلة الشعر معه نجده يتقدم بخطى راسخة وأقدام ثابتة فى دنيا الشعر . ففى ديوانه (مواكب الذكريات) يقول تحت عنوان (الربيع) :

شاعرٌ ينظم الــدرَرْ   شائق اللّحن والفِكَرْ
مستهــامٌ مرفــرِفٌ   للأَمــانىّ مبتكر

طيَّ أعطافه البشائرُ رفَّافــة الصُّــور
في ابتساماته البشا شات والحبُّ والظَّفَر
يزرع الدفْءَ في القلـــوب ويُوحى لمن فكر
السَّنا ذوبُ كأْســه والأَناشيــدُ تزدهر
لمنِ الموكب النضيــرُ علَتْ هامَه الــدُّرر
واستراحت على صداه رؤى البدْوِ والحضَر
ذاك يا صاحبي الربيعُ بدا ساحِرَ الغُــرَر

ويستمر يرسم صور الربيع البديعة ويجلو مناظره الخلابة الفاتنة إلى أن يقول عنه :

هو فيضٌ منَ المــنى هو نور من القــدر
هو أُنشــودة الزمان وأُغــرودةُ السِّيَر
إيهِ آذارُ رَفْرَفَ القلب واستبشــرَ العُمُــر
أَنت روح مجنّحٌ عبْهريّ السَّنا نَضِــر
بك تنساب في الحياة معــاني الغدِ الأَبر

وتعتمل الذكريات فى نفسه وتثور عواصفها ، فينطلق يستعرض أشرطتها فى ذهنه ويسكب الدموع على فقدها ، فيقول مثلا بعنوان (نجوى لهيف) :

ضاع دربي ما بين ظنٍّ وحَدْسٍ وتخبطتُ في متاهاتِ نفسي
والأعاصير عابثاتٌ بروضي ويْحَ روضي كم ريع منها بمس
جف لحني فيا أساي ، وحظِّي قاتمٌ ، أخرسُ المسامعُ مُغْس
أنا أحيا به فريداً غريباً راعشَ الخطو ، قد فقدتُ التأسِّي
أين مني غدي المضمَّخُ بالعطر وما فيه من جنى للتَّحسِّي ؟
أين مني غدي المفضَّضُ بالنور؟ تُراه ظلا كئيباً لأمسي؟

أما في ديوانه (بحيرة العطش) فإننا نأنس منه شاعراً مكتمل الأدوات ، ناضج الفكر ، مشبوب العواطف ، صادق الإحساس ، يصدر عن ملكة فنية جنحها الإلهام وصقلتها الدربة ، يقدّم من خلالها التجربة المتكاملة والصورة الكلية المتعانقة ، فيقول في إحدي وجدانياته بعنوان (سراب) :

وهتفتُ أشدو : أنتِ ؟ أنتِ هنا . . ؟
حقا لقد ضحك الزمان لنــا .
أَوَ أنتِ . . ؟ . . أم أنّي بضغْثِ كري . ؟
أرعاكِ حلْما يعمــر الوسنا

* * *

٩

كلاّ ، فهذا منهلُ الحب
ها أنت ذي نورا على قلبي
وبغرفتي طاف العبيـرُ فـذي
حـوريتي حنَّتْ إلى قربي
قد حمّق الدهر الضنين إذنْ . . .
آمالنا بسنا الهوى العـذْبِ

* * *

وصفعْتِني بحقيقة جُـلَّى
وأريْتِني أسطـورةَ المـاضي
وقذفتِ في قلبي سعيرَ أسى
ولفحتِ آمالي بإجهـاضِ

* * *

أنا جئتُ لا ما جئتُ للعتْب
ولقد أتيت يؤودني دربْي
قد جئت أرجو أن تحمّلني
رسمي لديك ، صبابة الحب
ورسائلا ما زلت أذكرها
فيهلّ دمعي دافق السكْب

* * *

وإليك بعـدُ رسائلا ملأَت
روحى هوى يفترّ أخضرُهُ
كم كنت أَرقبها ويغمـرنى
شوق لها فى القلب مصـدَرُه
والآن أَتركها مشـايعة
زوجى فحقُّ الزوج أُكبِرُه . .

* * *

وضممت ثَمَّ رسائلى الولهى
أَفْلاذ قلبٍ حائر باك . . .
ومضت كحلم طاف فى خَلَدي
ورجعت نضوَ أَسًى وأَشـواك

* * *

فالقصيدة كما تري تصوير رائع لواقع حى ، له بداية ونهاية وأَسباب ونتائج ، وأَلوان اللوحة فى غاية الجلاء والوضوح ، وزعتها يدٌ صُناع ، ومازجت بينها ريشة فنان ، لذا فإننا نستطيع أَن نعتبر هذا الديوان من قمم نجاح القرشى ، ومن أَبرز فترات نضجه وثراءِ عطاءَاته .

ومما سبق نكون قد تكلما عن جانب واحد من جوانب حياة الشاعر ، وهو الجانب الوجدانى ، الذي يشغل حيزاً كبيراً من أشعاره ، بل يمثل الجزء الكبير منها ، أما الجانب الآخر الهام من شعره ، فهو شعره الوطنى الذي يظهر بصفة خاصة فى دواوينه (نداءُ الدماءِ) و (فلسطين وكبرياءُ الجرح) و (لن يضيع الغد) ويقوم هذا النوع من شعره على ثلاث ركائز بارزة أخذت كل واحدة منها كثيراً من اهتمامه ، وهى وطنه الصغير : المملكة العربية السعودية ، والوطن الكبير : البلاد العربية ، والوطن الأكبر : العالم الإسلامى . ومن أمثلة النوع الأول قوله بعنوان (مكة) :

تفتَّقَ عن راحتَيْها الصباحُ

وشعشع فى شفتَيْها القَمَرْ

وأزهت بها الشمسُ فوق البطـ

ـاحِ وجُنَّ بها الليل حلْو الصُّوَر

عذيرَي هل يبلغنْ النشيدُ

رؤى مكةٍ أو تحيطُ الفِكَر

أسُودٌ غطاريفُها المُعْلَمون

ميامينُ فى كل نادٍ شُهِر

تدين لهم يَعرُبٌ من قديم

بصدقِ السَّماحِ وأزكى السِّيَر

ثم يتحدث عن ماضى مكة الدينى ، وكيف انبثق نور الإسلام من بين أرجائها ، وتنزلت فيها الآيات وتبدت المعجزات على يد محمد صلى الله عليه وسلم ، فدان لها القاصى والدانى ، وظلت مكة بذلك منار هداية وعنوان فخار :

وفيها انجلَى الحق للعالمينَ

وفاض الضياءُ بها وانتشر

بها كعبة الله طافت بها

قلوب تحنّ ، وازهت عُصُر

هيا جبلَ النور كم ذا شهدْتَ

من المعجزات وكم ذا ظَهر

تحدثْ ففى الغار شع اليقين
وقد تُنْطِقُ الذكرياتُ الحَجَر
أيا قمةً فوقَ هامِ الخلود
سمَتْ بسناها الشذِيِّ العطِر
إذا ما ارتقيتُ إليك انطوى
بحسّى الزمانُ وكَلَّ البَصَر
وخمَّنتُ وطئَ أن يستقرَّ
أمَا سار فيكَ نبيُّ البشر . ؟
وكم قد تعبَّد ثبْتَ الجَنانِ
يَزينُ محيَّاه أسمى أثر
إلى أن أطلّ على الكائنات
كإطلالة الفجرِ بعد السَّحر
أطلّ وفى بُرْدَتَيْه الضياءُ
ونبْعٌ من الحق عذبُ السُّور
أمكة فيك انطلاقُ الحنينِ
وفيك الشعورُ لمن قد شعَر

وفى نجْدٍ تهتز نفس الشاعر للحياة الجديدة التى بُعثت فيها على يد المخلصين ، حتى غدت قلعة من قلاع الحق والخير وحصنا لأمجاد العروبة والإسلام ، فيُحيّيها الشاعر مذكّرا بأصالتها وعراقة عروبتها وإبائها . فيقول :

نفحاتُ الصَّبا ومهدُ الخزامى
نجدُ يا موطن الإباء سلاما
أنتِ يا منبت العرار ، ومجْلَى
ذكرياتٍ تهدْهِد الأحلاما
يا كناس الظّباءِ منذ قديم
يتأبّى الأسودُ فيك اهتضاما
كم ذخرت العلاء مجدا فمجْـ
ـدًا وسكبتِ الإلهام جاماً فجاما
فيك سرُّ القرون من أمة العُرْ
ب تحدّي العقول والأفهاما
قد أثرتِ الهيام فى كل قلب
شاعريّ وما شفيتِ أواما

سيعيــد التاريخُ ما كان أعطاكِ
خـلوداً ومتعــةً تتســامى

ومن المآسى الإسلامية التى اشترك القرشى فى بكائها والحديث عنها ، مأساة زنجبار وقد قدم لقصيدته فيها بقوله : زنجبار . . جرح جديد ، دمى له قلب العروبة الجريح ، فقد كانت قاعدة العروبة والإسلام فى أفريقيا الشرقية ، وبانتهاء الحكم العربى فيها تنزلزل الصرح الذي ظل شامخاً طوال قرون عديدة . . قال القرشى :

زنجبــار . . .
أذكروها يا رفاقى . . .
أذكروها فهى مأساة جديدة
أذكــروها . . .
أذكروها فهى آلام وليدة
هى أخت صرعت . . حسرى شهيدة
أذكروها . . نكبة حلت عتيدة
هى حصن قد تداعى فى بلادي

ومنارٌ قد هوًي . . فوق الوهاد
أُذكروها يا رفاقى . . .
فلقد ولّت إلى غير تلاق
أطنئت فيها مصابيحُ العروبة
المصابيح التى شعت قروناً ودهوراً
فالأناشيدُ غدت . . ثُكْلاً . . وويلا . . وثبورا
وحصادُ الأمس . . قد عاد مع الريح نثيرا
أُذكروها بدم القلب . . بأصداء الجراح
أُذكروها فهى أحرى . . بعويل ونواح

ويخص القضية الفلسطينية بكثير من شعره الوطنى ، الذي يفيض بالروح الوطنية المخلصة ، ويعبر عن نفس امتلأت بحب العروبة وأمجاد الإسلام . يبكى أحياناً مع الباكين ، ويشيد بالبطولة ، ويغنى للجهاد والفداء ويدعو إلى الثأر ويشيد بالحرية ويؤمن بيوم النصر ، ومن فلسطينياته يخاطب أحد الفدائيين تحت عنوان (فدائى العروبة) :

ثبـاتُك للأَذي فـرع الجبالا
أَذِنْتَ لغيـر مكرمةٍ نضـالا
فدائىَّ العـروبة أَلفَ مـرْحَى
ليـومك سوف نرمقُـهُ هـلالا
طليـقُ أَنت والأَسـرى جموعُ
أَبَتْ إِلَّا المـذلةَ والنكـالا
وأَفصحُ منطقـاً بطـل تصدَّى
لإِسرائيـلَ يبتـدر المجالا
له بطش ، يَليـنُ الصخر حينا
ولا يرضى ليـانا أَو مطـالا
فهبَّ وليس للوطـن المفـدّى
سـوي الدمِ فى ثراه نَمَا وسالا
مضى يتخطَّف الأَرواحَ منهم
ويجنيها لنـا ثمراً حـلالا
يدك حصونَهم برفاق صـدْقٍ
ضراغمَ حيثما ورَدُوا النـزالا

ترصده البغــاةُ وليس غــرًّا

لهم ، لكنّ للقـــدر اهتبالا

أمحمودٌ وأنتَ فــتى المنايا

ومن حَمِدَتْ له الدنيا احتمالا

فلسطينٌ بمثلك سوف تحيــا

لنشبـــع فى معــاركها قتــالا

لقد شارك القرشى بشعره فى جميع المعارك الإسلامية والعربية ضد البغى والعدوان ، وصب شعره سياطاً نارية على المستعمرين ، فكان لساننا الناطق وقلمنا المعبر وفؤادنا الثائر . ولا يفوتنا ونحن نختم هذه الكلمة عن شاعرنا الكبير أن نذكر أن لشعره جوانب أخري فهو شاعر غزير الإنتاج متعدد الأغراض يحتاج إلى دراسة مستفيضة مستأنية ، تتبع مناحى شعره الكثيرة وتوفيها حقها من الدراسة الجادة الفاحصة ، وبغير هذا نكون قد غمطنا هذا الشاعر الكبير حقه ،

وما ذكرناه لا يزيد عن كونه إيمائة سريعة خاطفة كمثل الدقيقة من الأسبوع والقطرة من الينبوع ، والذي يطمئنا فى هذا المضمار هو شهرة الشاعر الواسعة التى تغنينا عن الإسهاب وكثرة الاستشهاد . وهل يخفى القمر ؟ . .

* * *

سعد البواردي

في إحدي مؤلفات الشاعر سعد البواردي تقرأ العبارة الآتية : (إنني أبرأ من كل أدب ذاتي ، ولا أري أدباً إلا ما يخدم الحياة فقط) ، ومن هذه العبارة الصغيرة تستطيع أن نستشف اتجاهه في الشعر ومنحاه في الأدب بصفة عامة ، فهو شاعر وقصاص وصحفي . أما أنه صحفي فقد كان من أسرة تحرير مجلة اليمامة في الرياض ، ثم إنه أصدر أثناء إقامته في مدينة الخُبَر مجلة سماها (الإشعاع) ، استمرت في الصدور سنة كاملة .

وأما أنه قصاص فإن له قصة شعبية بعنوان (عبقري المدينة) وقصة إنسانية بعنوان (القديس) وغيرهما .

وأما أنه شاعر فذلك أمر معرف تشهد له به دواوينه الكثيرة التي كان أقْدَمها ديوان (أغنية العودة) الذي طبعه عام ١٩٦١ م ثم (صفارة الإنذار) ، (وذرات في الأفق) ، (وأحاسيس من الصحرء) ، (وأطياف الربيع) ، (ولقطات ملونة) وغيرها .

ورغم أنه لم تتهيأ له الدراسة النظامية العالية فقد أقبل على القراءة بشراهة واستيعاب ، حتى حقق لنفسه مكانة مرموقة فى عالم الشعر والصحافة والأدب . ولعل من حسن حظ الأدب أن الصحافة لم تبتلع قدراته الفنية ، ولم تسئ إلى ذوقه الأدبى الرفيع ، كما فعلت وتفعل ببعض أدبائنا . ومن مراجعتنا لبعض أشعاره وجدناه فعلا يبتعد كثيراً عن الذاتية والتقوقع فى حيز المشاعر الفردية ، وينطلق بكل إمكاناته الفنية ليخدم كل غرض حياتى نبيل ، ويسخر شعره لمعالجة القضايا الإنسانية والإجتماعية داخل بلده وخارجها ، وقد أخذت قضية فلسطين جانباً كبيراً من شعره ، بل إنه خصها بأكثر من ديوان ، فديواناه : (أغنية العودة) ، وصفارة الإنذار) ، يمثلان مجموعة من قصائده الفلسطينية ، التى تدعو إلى الثأر واسترجاع الحق العربى السليب ، وفى ديوانه (لقطات ملونة) يقول بعنوان : (نشيد فلسطين) :

يا فلسطينُ اسْلِمي   سوف يَفْدِيك دمِى
فيك سوّينا الصفوفْ   فيك وحّدْنا الهدف
وجدانُنا فيكِ هتَفْ   يا فلسطينُ اسلَمِى
الخيــامُ والكهــوف   وارتعاشاتُ الصّبايا
قسماً ستمـــوتْ   فى زحامِ المنـايا

يا فلسطيـنُ اسْلَمِى

لن يكونَ اللاجئون   لن تكونَ الدمـوع
قسمًا لن تكـونْ   صرخةٌ فى الجموع

يا فلسطيـنُ اسْلَمِى

يا فلسطينُ ابْسمى   فيك تُجْلَى الصُّوَرْ
قسمًـا مـن دمى   سيخُـطُّ الخَطَــر
أَلفَ سطـرٍ ظَمِى   لِغَـدِي . فاسلَمى

يا فلسطيـنُ اسْلَمِى

فهو يتوق إلى الثأر ويتطلع إلى المعركة الحاسمة التى يلد فى جحيمها النصر ، وينبثق من دجناتها الفجر ، وتكون حداً فاصلا بين عهد المذلة والدموع

والتشرد ، وعهد العزة والفرحة والعودة الظافرة إن شاءَ الله :

وفى قصيدة أُخرى بعنوان (ميلاد طفل) يقول :

اعطـــنى الأَلــمْ   اعطـــنى الجراحْ
اسقـــنى الدموعْ   أَيهــا الرضيــعْ
إنــنى رضيـــع   أَغتـــذي الأَلم
أَرضـــع الجـراحْ   أَشــرب الدمــوع

ويخاطب اليهود الذين جثموا فوق صدر الفردوس السليب بقوله :

ما أَنا الجبـــانْ   انتهَــى القطيــعْ
أَيهــا الدخيـــل   لم يعــدْ قطعــانْ
هــذه الجمـــوع   تقهـــر الزمــانْ
اعطـــنى العــذابْ   اعطـــنى الجراح
كم على الحراب   يُشــرق الصبــاح
يــورق التّــرابْ   تُزهــر البطـــاح
أَيهــا الحقـــودْ   لســـتُ بالذليـــل
عيـــدُ مولــدي   يــومَ أَن تـــزول

قدْسُنــا الجميــلْ يافا والجليــل
لــن تُرِيعَهــا أيهــا الدخيــل

وكراهيته للظلم بجميع أنواعه جعلته يتألم لكل مظلوم وإن ابتعد عنه جنساً وديناً وداراً ، فالإنسان هو الإنسان أينما كان ، يجب أن لا يطغى الأقوياءُ من الناس على الضعفاءِ ويسلبوهم حقوقهم ، فلا فرق بين أسود وأبيض ولا تمييزاً عنصريًّا بين أفراد البشر ، والتمييز العنصريّ كما نعلم قضية عانى منها الإنسان الملوّن فى أمريكا وجنوب أفريقيا وذاق منها الأمرين . ولشاعرنا البواردي قصيدة بعنوان (الحارة الزنجية) قدم لها بقوله : هناك ، حيث تقع مدينة جوهانسبوج عاصمة جنوب أفريقيا الصاخبة يوجد أكثر من حارة زنجية يخيم عليها الصمت والعزلة . يقول فيها :

الحارة الزنجيــة
يُغرقها السُّبــاتْ
تبحث عن أصــواتْ

تُعطى لها الحياة
كأنها فلاة
تسودها السكينةْ
كأنها مواتْ
ليست من الحياة
ليست من المدينةْ

* * *

الحارة الحزينة
جدرانها عوجاءْ
أوتادها عرجاءْ
متّشحة السوادْ
دموعها التراب
أنفاسها الضباب
الليل والنهارْ
سيان فى الحساب
تبحث عن سؤالْ
تبحث عن جواب

ونلاحظ أن القصيدة من شعر التفعيلة وهو لون من التجديد النغمى الذي لا مراء فى اعتباره من الشعر وإن رفضه آخرون ، لكننا نلحظ اضطراب الوزن فى قوله متشحة السواد بحيث لا تستقيم قراءتها إلا مع تسكين الشين ، وله قصيدة أخرى بعنوان (مناضل من موزنبيق) ، وهى قصيدة مصرّعة ولكنه آثر أن يكتبها على طريقة الكلمات المتناثرة ، يقول على لسان هذا المناضل :

أمتي . . هل أبصر الفجرَ عيونٌ منك ؟ قولى
ضمِّدي الجُرح فقد أثْخَنَنى جرحاً عَـنولى
فى ذيول الأُفْـق أبصـرتُ على النُّور سبيلى
غير أن الشك أرخى فى دُجَى الشك ذيولى
أنا أبصرتُ ولكن أنا فى شك . . فقـولى

وللشاعر البواردي أيضاً بعض القصائد التى عبر فيها عن عقيدته الإسلامية الخالدة ، وتغنّى بها فى خضم هذا العالم الذي طغت عليه المذاهب المادية المختلفة ، ودثّر الشك دروبه ، وملأته المتناقضات الراعفة بالكفر

والإلحاد ، وما أروع الكلمات المؤمنة تنثال من قلب الفنان زكية ندية بأفاويق الجنان وأعراف العقيدة الطاهرة . . ! يقول البواردي بعنوان « أنا مسلم » :

أَنا مسلمٌ . . أَنا مسلمٌ   أَنا بالعقيدة مسـلمُ
قلبي أَطلّ على الحيـاة كما تُطِلّ الأَنجم
وجوانحي في أُفْـق أَحلامي العِراضِ تُهوِّم
دعني فما أَنا بالمشكِّكِ لا . . ولا متبـــرِّمُ
إن كان يعظُمُ مطلبي هـوْلاً فإني أَعظـم
أَنا بالحيـاة تنفُّسي أَنا في الرَّدي أَتنسَّم
لا الوردُ ينسيـني الجهـادَ ولا الـدّم
أَنا مسلمٌ أَنا مسلمٌ أَنا بالرسـالة مسلم
أَدعو . . أَذود عن الحمى أَبني . . أُسلّم . . أَحكم

وإنك لتحس من تكراره لجملة أنا مسلم تحدياً لمواقف وعقائد دخيلة جحفَتْ بعض ضعاف الإيمان واجتذبت إليها كثيراً من الضحايا . . إن في هذا التكرار تصميماً وإيماناً ، واعتزازاً وهكذا يجب أن

يكون موقف المسلم الذي امتلأ قلبه بمعرفة ربه وزخرت نفسه بالإسلام الراسخ المكين .

ويقرأ البواردي قصيدة شوقي (ولد الهدى) فتتأثر نفسه بما قرأ ، ويعود بمشاعره إلى تلك الذكرى الإسلامية المجيدة . . ذكرى ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أنقذ الله به البشرية من ضلالتها ، وهداها ، فيقول بعنوان (نهج ولد الهدى) :

وُلِد الهـدي فالكائنات ضيـاءُ
وفـم الزمان تبسـم وثنـاءُ
الكون يوم ولدتَّ جاء ربيعـهُ
والطيـنُ كنت فخـارَهُ والماءُ
الفقـر ذقتَ لحكمة قدسيـةٍ
حيـاك فى مدلـولها الفقـراءُ
واليتم والعمل الشريف وسعْيُه
ما نال من حسـب السماء رعاءُ
إقرأ ، وجاء الوحىُ شرعاً هادياً
يدعـو وفيـه محجـةٌ وشِفاءُ

وأتى الخصومُ الكافرون وساوموا
ظنا ، فخاب الظــن والإغـــراءُ

أعطـوْكَ للدنيــا الوعودَ زعامــةَ
مالاً . . وكلٌّ فمٍ عليه رجــاءُ

عَقدوا لواءهما عليك فما انثــنَى
عزمٌ . . ولا فى الدين هان لــواءُ

حُمّتْ بدعوتك الخطــايا مرّة
وتكالبت فى حــربها الأَخطاءُ

فإذا النفوسُ تربُّصٌ يَبكى لــه
الوادي . . وتفضحُ ســرَّهُ البطحاءُ

وأَدوا البناتِ وسفّهــوا أَحلامهمْ
وتحكّمتْ بهـــواهمُ الصَّهبــاءُ

وإذا بمكةَ صرخةٌ مشبوبةُ الأَحــ
ـتمادِ يُضــرِمها هــوًى وعِداءُ

شَرَعُوا إليك حرابَهمْ ونبــالَهمْ
فكأَنّ برَّهــمُ لك الإيــــذاءُ

ويصاحب الشاعر الدعوة المحمدية منذ بدايتها ويرافق صمودها فى وجه الشرك والظلم والطغيان ، ثم يختمها بقوله :

نادتكَ طيبــة فاستجبْتَ نداءها
كرَمًا . . وفاز بسبْقِك الكــرماءُ
آمنتُ أنك للخليقــة منقــذٌ
الأرض حقلٌ أنت فيــه سماءُ
تدعو إلى الله النفوسَ جهولةً
ليقــودَها فى رَكبِها العقـــلاءُ
الدين والأخــلاق والحبُّ الذي
يَبــنى الحيــاةَ ليسعدَ الأحياءُ
والعدل والإيثار والعملُ الذي
تنمــو عليه وتحتمى الأعضــاءُ
العفو والصبر الجميلُ على الأذى
جاءت بها ذي الملّــةُ السّمْحاءُ
آمنتُ أنك بالهــدايا جئتنــا
فبك النفوسُ زكتْ وزال الداءُ

كنت الرحيمَ فما دعوت لقسوةٍ
أَبدا فدينُك أَهلُه الرُّحماءُ

وعفوتَ مقتدرا بمكة فاتحا
فالعفوُ عندك شيمةٌ شمّاءُ

والمسلمون بظل دعوتك التقَوْا
وأَظلّهمْ فى الخالدين إخاءُ

صلّى عليك الله من عليائه
والخلْقُ منك مدَي الحياة دُعاءُ

والبواردي يؤثر فى أَغلب الأَحيان التعبير غير المباشر عن المعانى والأَشياءِ ، ليصل إلى غرضه فى أُسلوب هاديءٍ بعيد عن الصخب وضجيج الأَلفاظ ، فهو يصل إلى ما يريد دون اقتحام أَو إقحام .

وينظر شاعرنا حوله فيرى عالم اليوم تسوده الوحشية وتملك أَعنته الضراوة والطمع المسعور ، فتهتز نفسه لهذا الجانب البشع من جوانب الحياة ، ويتولد فيها الرفض المطلق لهذه المقاييس ، ومن ذلك قصيدة له

بعنوان (دعه يلعب) وجهها إلى الخادم الذي شكا إليه أحد أطفاله ، يقول فيها :

جاء يشكـــو
قائـــلا :
الطفـــلُ يلعبْ
أيهـــا الأَبْ
أينمـــا يذهـــب
فى المنـــزلِ
فى البستـــانِ
فى الشـــارعِ
فى الحانـــوتِ
أنَّى كان . . يلعبْ
قـــل لـــهُ . .
عَنِّفْـــــهُ
بل واضـــربْهُ
حـــتى يتـــأدَّبْ
أيهـــا الأَبْ

وبعد مقاطع عديدة يستعرض فيها صوراً لعبث طفله على لسان الخادم الثرثار ، الذي امتلأت نفسه بالضيق من حركات الطفل البريئة ، التى لا تحمل أي معنى للخبث أو العنف أو التدمير كما هو الحال فى حركات الكبار فى هذا العالم المحموم . . بعد تلك المقاطع يبدأ الشاعر فى الرد على الخادم قائلا :

هكذا جاءَ الصبيُّ يتشكّى
أمْرَ طفلٍ
يتكلمْ
وبمنطوق ملعثمْ
يتكلمْ
قلت :
مهلًا . !
هو طفلٌ
دعْه يلهُو
دعه يلعبْ
فحن مثل الطفلِ

كالأطفــال نلعبْ

يقطف الزهــر . . ولكن

نحن كم نقطف عُمْــرًا . !

يجهد الأنفاس . . لكن . .

نحن كم نقتل نفسا . !

يمنح الحلوى . . ولكن . .

نحن كم نمنح بلْوَى . !

دعــه يلهــو

دعــه يلعبْ

فهــو طفــل

ليس فى كلتا يديه أيُّ مخلبْ

ليس فى عينيه تقريرٌ لمأتمْ

ما رأى للحقد صورةً

دعــه يلهــو

دعــه يلعب

كيفمــا شاء

وأنّى شاء يذهب .

وهكذا يسترسل الشاعر فى الموازنة بين ما يصدر من الأَطفال الصغار من لعب حلو رائع يدل على الحيوية والصحة والعافية ، ويعبر عن البراءَة فى أَجلى معانيها وأَجمل صورها ، وبين ما يقوم به الكبار من باطل وظلم مبيّت ، وهو فى ذلك كله يحاول أَن يكرّه إلى الناس جميعاً كلَّ مظاهر الظلم ويحملهم على المحبة والخير والتسامح ،ويقول لهم : إِن الإِنسان أَخ الانسان وإِن اختلفت الأَلوان وتباعدت الديار ، وهذه المضامين التى تغنى بها البواردي هى مضامين إِسلامية وإِنسانية فى آن واحد ، وإِنه لكذلك فى عامة أَشعاره .

ولم يقتصر التجديد عند البواردي على المضمون وحده بل تعداه أَيضاً إِلى الشكل . فهو يعتمد فى عامة أَشعاره على شعر التفعيلة ، ولهذا يصح لنا أَن نعده من الشعراءِ المجددين بحق ، وإِن كنت لا أَود له المبالغة فى التمرد على الشكل . فشكل قصيدتنا العربية من أَجمل الأَشكال النغمية فى العالم وإِن استدعى كثيراً من الجهد والعناءِ ، فذلك شأْن كل أَمر عظيم ،

أقول هذا وأنا ممن يكتب شعر التفعيلة ويؤمن به كإطار للتجديد وكوسيلة لتطوير موسيقانا الشعرية ، ولكنني أخشى من الخلط بينه وبين بعض الكلام (السائب) المزدحم بسيل من النقط وأدوات الترقيم ، يأتي مكتوباً على شكل شعر التفعيلة ، وما هو منه ولا من الشعر في شيء . سيظل ذلك الضرب من القول مرفوضاً مردوداً على أصحابه ما دام في الناس عرب وفي الضمائر عربية تهتز للولاء والوفاء .

* * *

محمد علي السنوسي

قبل أن تتحول جيزان وما جاورها من جنوب مملكتنا المتطورة النامية إلى جنة حقيقية ومزارع خضر تزخر بالخصب والعطاء ، إثر إنشاء سد جيزان وما تبعه من إنجازات زراعية ضخمة وخطوط للمواصلات قربت البعيد ، وألغت المسافات وحققت كثيراً من المنشآت الأخري ، قبل هذا الواقع الذي أصبحت تعيشه حاضرة الجنوب (جيزان) كان الشاعر محمد على السنوسى قد حلم به وبشر بحدوثه ، وأسهم فى الدعوة إليه شعراً ونثراً ، فهو قد رسم صورة جيزان فى شعره ، وواكب المسيرة الحضارية لتلك المنطقة بصفة خاصة والنهضة الشاملة التى تعيشها هذه البلاد ، والمسئولون ترجموا كل ذلك وأكثر منه واقعاً ملموساً تعيشه تلك المنطقة اليوم ناعمة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ويحس به كلُّ من زارها منذ سنوات ، ثمّ قدّر له أن يزورها اليوم ، إن ارتباط السنوسى بالأرض ارتباط وثيق جداً ، ومن أجل ذلك

نراه يرتاح إلى اللقب الذي أضفته عليه بعض الصحف الأدبية المحلية وهو (شاعر الجنوب) ولهذا أثبته بظاهر ديوانه (القلائد) الذي كتب مقدمته صاحب مجلة المنهل الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري ، وأشاد بشاعريته الأصيلة وأدبه الرفيع ، أما هو فيقدم ديوانه بهذه الأبيات :

هـذه ألحانُ قلبي وأغاريـدُ شبـابى
هى أحلامى وآمالى وكأسى وشـرابى
وصَباباتى وأشجانى وحـبِّى وعـذابى
إنها صـورةُ نفسى قد تجلّت فى كتاب

لقد لخص السنوسى بالأبيات القليلة السابقة محتويِ ديوانه ، وأعطى الصورة التى ينبغى أن يكون عليها الشعر الحق ، فأي مستوى يطمح أن يصل إليه الشاعر . ! غير أن يكون شعره أغرودة عذبة فى فم الشباب ولحناً رقيقاً للقلب ، ونغماً نديًا يصور الأحلام والآمال ، ويشرح الشوق والصبابات دون اختصار ،

ويضمد الآلام والجروح ، ثم هو فى جميع ذلك يكون صورة لقائله وجزءًا من نفسه .

وأهم ما يميز شاعرنا السنوسى بُعْده عن الذاتية المفرطة التى نأت ببعض شعرائنا عن واقع مجتمعهم ، وجعلت أُمتهم وبلادهم غريبة فى أشعارهم وأشعارهم غريبة عنها . فهو شاعر واقعى يغترف من واقع بلاده ، ويشترك فى أحداث الأُمة العربية والإسلامية ، إيماناً منه بأن الفنان يجب أن يسخّر فنه فى خدمة بلده ويتغنى بحاضر أُمته وماضيها ومستقبلها . ولنستمع إليه فى قصيدة له بعنوان (نداءٌ) يقول :

بنى وطنى إنَّا على فجـر نهضـةٍ
تصدُّ الدجَى أَنَّى تدجَّى وتَصْدع
وللفجر فى وجـه الحياة أَشعـةٌ
تُذيب الكرى عن ناظريْها وتدفع
وإنِّى لأَستنْشى شـذاها وعطـرها
وأَشـدو لها من نشـوة وأَوقِّع

بكينا على الماضي كثيراً ، وإن يكن
خطيرا ، فما يجدي البُكا والتفجّع؟

مضى السلف الأَبرار يعبق ذكْرُهمْ
فسيروا كما ساروا على الدهر واصْنعوا

خُذوا بأَكفٍّ الأُسْد من أسهُمِ العلى
نصيبا ، فإِن الحاضر اليوم أَوسع

يدُ الدهر لا تسخو بمجد لعاجزٍ
ضعيفٍ، ولا تَنْدى ، ولا تتبرع

لقد أفصحتْ عن سرها لو تكلّمتْ
حياةٌ بقدْر السعْي تُعطى وتَمنـــع

وما قيمةُ الأَوطان إن لم يكن لها
رجالٌ يلذّون الشقـــاءَ لينفعـــوا

حصدْنا الضَّنى لمّا زرعنا له المُنى
(وجلُّ حصادِ المرءِ من حيثُ يزرع)

ومن ضاق ذرعاً بالحيـــاة فإنّها
تضيقُ به ، وهْو الكريم السَّميذع

وهذه القصيدة إحساس وطنى مخلص ، فيها التطلّع وفيها الحكمة والتوجيه والإرشاد . ورغم ثقافة السنوسى اللغوية التى تلقّاها على يد أبرز العلماء فى الجنوب ومنهم والده ، فإنه يقع فى بعض أخطاء شعراءِ عصره ، كاعتباره كلمة دُجى فى البيت الأول مفردة ، وهى فى الواقع جمع دُجْية ، كدُمية ودُمًى ومُدْية ومُدًى ، قال :

بنى وطنى إنّا على فجر نهضة
تصدُّ الدُّجى أنّى تدجّى وتصدع

والصواب تدجّت . وقد استعملها الشاعر أيضاً فى مواضع أخرى من شعره بالطريقة نفسها . ففى قصيدة له بعنوان (أتمنى) يقول :

أتمنى أننى لا أتمنى
فلقد بتُّ بآمالى مُعَنّى

كلما لاح لِعينىَّ سنى
وهفا قلبى إليه واطمأنّا

لفّـــه العيمُ وواراه الدُّجى

وانطوي فى لُجة الأَيام ظنّا

المُنى يا للمنى من زورق

ما رَسَا يومًا ولا نحن وصلْنا

وفى هذه القصيدة نفسها يستعمل النُّهى مفرداً أَيضاً وهو ليس كذلك ، بل هو جمعٌ مفرده نُهْية ، يقــول :

أَتمنّى أَنْ أَرى مجتمــعى

لوذعيٍّ الفكر مصقولَ الشعور

يرفض الزيف نُهاه ويــرى

وعْيُه اليقظانُ ما خلفَ القشور

يعشق المجدَ ويمشى للعــلى

مستقلٍّ الفكر شفّاف الضمير

المُنى يا لَلْمنى من زورق

لم يزل يجري بنا عَبْرَ العصور

وبقدر ما فى القصيدة العينية من اتّباعية ظاهرة تلحظ الروح العصرية المتأَلقة فى قوله :

أتمنّى أنــى لا أتمنّى

فلقــد بتُّ بآمالى مُعنَّى

فقد اتسمت هذه الأبياتُ بشاعرية أصيلة ، تنساب إلى النفس بيسر وسهولة دون تكلف ، وتحمل معانى القلق والشوق والطموح ، كل ذلك فى تصوير خصب ، وخيال بارع خفيف الروح ، دون تكثيف أو مبالغة فى الأصباغ والألوان .

ومع صلة شاعرنا السنوسى بالتراث فإنه كان أيضاً على صلة بالآداب الغربية المترجمة ، يقرؤها ويستفيد منها ويتمثّل ما فيها من تجديد ووسائل للتعبير . وفى ديوان القلائد قصيدة له عنوانها (أنشودة الصقر) قدّم لها بقوله : هذه قصة للكاتب العالمى مكسيم جوركى . وضعناها فى هذا الإطار الشعري ، بعد أن أضفنا إليها لمساتٍ فنية تقربها من الذوق العربى الشفاف . يقول السنوسى :

زخر البحرُ ذو العبــاب وحيّا

شاطئــاً حالماً وأُفْقــاً بهيًّــا

وازرقاقُ السماءِ يُضْفى على الْـ
ـكَوْن جمالًا مهَفْهَفًا شاعريًا
والسنا ذائب يشعشعُ فى المو
ج رحيقاً ، ويستثير حُميًا
وعلى صفحة الفضاءِ شعاع
أَبيضٌ يسكُب الصفاء نقيًا
نهض (الصقر) والسماءُ حواليْه
سحاباً وبارقاً وشعاعا
جذبته إلى السماءِ معانيها
فلبَّى نداءَها وأَطاعا

* * *

طائرٌ تزدهيه إطلالةُ الفجْر
ويهفو بقلبه الإشراقُ
عشق الشمسَ واستبدَّت به
الشُّهب وأَلْوَت بنفسه الأَشواق

ويواصل الشاعر الحديث عن قصة هذا الصقر وكيف تعرض لطلقة نارية طوحت به جريحاً ، وهو

طائر يعز عليه أن يتمرغ فى الطين والأوحال ، وإذا حية تطل عليه وتقترب منه رويداً ، وبنظرة واحدة منه تراجعت وطلبت منه صداقته ، ويجري بينهما حوار قصير ، تعلم منه أن هذا الصقر جاء من أرض بعيدة كانت مهداً للجمال والحب والصفاء والوفاء . . لقد جاء من الشرق العظيم . ثم يستجمع الصقر قواه ويطير ، ويترك الحية تحاول أن تطير ، لكنها تخيب فى محاولتها لأن الطيران مخالف لتركيبها وطبيعتها ، أما هو فيهْوِي فى البحر ويموت ، ولكن أُنشودته تظل حية فى الضمائر ، محفورة بعمق فى القلوب .

وقد وُفِّق السنوسى أيما توفيق فى رسم الصورة وصوغ القصة واختيار اللفظ الملائم الذي يساعد على توصيل المعنى ونقل المشهد والإيحاء بالمراد .

وللسنوسى مشاعر دينية قوية ، فقلبه يهتز للمناسبات الإسلامية الخالدة ، ونفسه تستجيب لمعانيها المتجددة ، فها هى قريحته تتفجر بمناسبة الهجرة

النبوية الشريفة بقصيدة عنوانها (ليلة الهجرة) يقــول :

بين إشراقة الهدي من حــراءِ
وانطــلاق الشعــاع نحو قباءِ
ليلةٌ ما تنفَّس الصبحُ عن مثل
سنَاها على ثــرى الصحـــراءِ
فَرْدةٌ فــذَّة تنــوءُ بســـر
أَبيضٍ فى دجنّـــــة ســوداءِ
جثمَتْ حـــوله تضمُّ جنـــا
حيْها حُنــوًّا عليـــه كالورقاءِ
والسكونُ العميــقُ يملأُ قلب الأَ
رْض والكــونُ عامر بالــرجاءِ
وعيــونُ السماءِ من كل نجْــمٍ
رُصَّــدٌ للعصـــابة الرَّضْـداءِ
يطأُ الأَرض نورُها فى خفوتٍ
ويُــرّي لائــذًا بكل خِبــاءِ

إلى أن يقــول :

ونجا سيــد النبيّين والرسْــل
محــاطًا بهــالةٍ بيضبــاءِ

مرَّ من بينهـــم مرورَ شعــاعٍ
البرق بين السحــابة النكبــاءِ

ورماهُمْ بحفنـــة من تــراب
كلَّلتْ كلَّ هامــة جـــوفاءِ

وانثنَى ينفُــض التــرابَ رجالٌ
نفضَ الله كيــدهُم فى الهــواءِ

ليلة ما تنفَّس الصبح عن مثل
سنـــاها على ثَــري الصحــراءِ

إنها الليلة التى وُلِدَ العــالَم
فى مهـــد فجــرها الوضـــاءِ

واستدار التاريخ يُمْلى على الد
نيــا سطــورَ الرسالة الغـــراءِ

فقد اجتمع لهذه القصيدة كلُّ عناصر الجمال ، من عاطفة قوية صادقة آسرة وتصوير رائع أخاذ ، كصورة الليلة التى تضم جناحيها بحنو على السر الأبيض ، وصورة ميلاد العالم فى مهاد فجرها ، واستدارة التاريخ ليملى على الدنيا سطور الرسالة الغراءِ . كما توافرت لها الأفكار القيمة واللفظ الرقيق والموسيقى الحانية ، وكل ذلك يشهد لشاعرنا بالقدرة الخلاقة والفن البديع .

وفى قصيدة له بعنوان مسقط رأسه (جيزان) يقول :

جازان يا درة الجَنُوبِ ... الباسمِ الناعم الخصيبِ
لكلّ قلب إليك شوقٌ ... مضمخٌ من هوًى وطيب
البحرُ والصخر فيك يزهو ... بنشوة السحر فى الغروب
والليلُ والبدر فيك ياهو ... على رؤي الشاطىءِ الطروب
وأنت فى روعة المجالى ... وسحرها الفاتن اللعوب
عروسة الشعر والأغانى ... ومنية النفس والقلوب
وأنت أنتِ الهوي المصفّى ... للفن والحب والحبيب
جازان يا درة الجنوب ... الباسم الناعم الخصيب

وكما غنى لبلده جازان غناءُ العاشق الولهان ، وقلبه يرقص حباً وطرباً وشوقاً ، فإنه غنى للجراح النازفة والنيران القاذفة أُنشودة الأَلم والثأْر والإصرار ، ونفسه مليئة ثقة بالمستقبل ، مؤمنة بنصر الله . يخاطب منظمة فتح الباسلة فيقول :

يا فتح . يا أَملا أَضاءَ الليل واكتسح الغيوما
يا نسمةً رفّت بها الدنيا حوالَيْنا نسيما
يا نفحةً أَحيتْ أَمانينـــا وأَيقظتِ الرَّميما
وسنًا أَضاءَ قلوبنا ومحا أَساها والهمـــوما
يا فتح يا أُغرودةً هزّت معانيها الحُلوما
كونى على صهيون بركانا وعاصفةً سَموما
أَخْذًا بحق الثأْر مِنْ طاغٍ أَبَى أَن يستقيما
فأَباد صبيانا وشبانا ولم يرحَمْ فطيما
لم يلتزم خُلُقا ولا مُثُلا ولا شرْعا قــويما
يا فتح كل يد تشد يديك إعجابا عظيما

والسنوسى حين يكتب إلى فتح إنما يعبر بذلك عن روح وطنية فياضة ، لُحمتها العروبة والإسلام ،

هو لا يعبر عن أحاسيسه الخاصة فقط ، بل إن شعره في هذا الباب تعبير عن عواطف كل عربي في هذه البلاد التي لم تألُ جهدا في تحمل مسئوليتها كاملة في الكفاح الفلسطيني من أول لحظة إلى اليوم ، حكومة وشعبا ، وقدكانت أكبر أمنية للملك الشهيد ألا يقبضه الله إليه حتى تستعيد الأمة الإسلامية حرمها الثالث ويصلي فيه ، وأن الإخوة الأوفياء من بعده على الدرب سائرون .

قلت في أول كلمتي : إن محمد علي السنوسي شديد الإرتباط بالأرض عميق الجذور بالواقعية ، لا يؤمن بشعر الأحلام والأبراج العاجية ، يشترك في مناسبات بلاده جميعاً بشعره ويتغنى بأمجادها وأراضيها ، ويحدو كفاحها مع الأعداء ، وما أجمل الغناء المخلص وأشجاه . ! وكما غنى لجازان في أعراس نهضتها وتطورها ، غنى لأبها أيضاً ، ففي قصيدة له بعنوان (إلى أبها) يقول :

تنــورتُها من وراءِ السحــابْ
وبى ولهٌ نحــوها وانجــذابْ

وقد طار بى نحــوها طائــرٌ
طوى الأُفْق طيَّ السجلِّ الكتاب

تهادَي وحمْحمَ ثم استــوى
على الجو منطلقاً كالعُقــاب

وحوّم يلوي الذرى الشــامخات
وينســاب من فوقها كالحُباب

فلاحت لعيــنيَ داراتُهــا
لآلئ منشــورةً فى الشِّعاب

نشاوَى ترفــرف أنفاسُهــا
بروح الصِّبــا وعبير الشباب

تنام بـأَحضــانها الأُمنيــاتُ
كنوم الجداول فى حضن غاب

إلى أن يقول :

ترى الشمسَ فى جـوها لوحةً
وتحسبُها صـورةً فى كتاب

وتبـدو الكواكب فى أفْقِها
على قابَ قوسين من كل باب

تبرَّجَ فيها جمـالُ السماءِ
وألقى غلائلَـه والنِّقـاب

وباحتْ بأسرارها الكائنـاتُ
فشفَّ السنـا وتجلَّى اللبـاب

كأنك فيهـا على ربْـوةٍ
من النجم أو رفرفٍ من سحاب

وودت لو أطال النفَس قليلا فى وصف الطائرة ، ليمكننا أن نوازن بين وصفه لها ووصف شوقى فى همزيته التى مطلعها :

مركب لو سلف الدهـر به
كان إحدي معجزات القدماء

ولكنه لم يفعل خشية أن يحيف على الغرض الأساسى فى القصيدة ، وهو وصف أبها ، وقد احترت فى اختيار البيت الذي يستحق الإشادة فى هذا النص فكل بيت منه فيضٌ من جمال أبها وإبداعات السنوسى.

فلله أنتِ يا أبهـا . . . !

وما أروعك يا شاعر الجنوب . . . !

* * *

أحمد قنديل

شاعرنا القنديل غنى عن التعريف . . فأنت لا بد أن تكون قرأت شعره فى الصحف ، أو شاهدت قناديله فى التلفاز ، أو سمعت قناديله الإذاعية فى المذياع ، لأن هذا الشاعر يتخذ لكل موقف ما يناسبه ، ويلبس لكل حالة لبوسها ، فهو ينظم الشعر الفصيح فيباري أقرانه وشعراء جيله ، ويسعد بالعربية وتسعد العربية به ، ويكتب الشعر العامى فيسابق أهله ويبز ذويه ويسر أقواماً ويسيء آخرين . . وحتى قناديله التلفازية تختلف كثيراً عن قناديله الإذاعية . وهكذا . . ولكنه فى جميع أولئك خفيف الروح بيّن الظُّرف بعيد الأهداف . . كان ينشر بعض إنتاجه تحت توقيع (الصّموت الحساس) وكلاهما من صيغ المبالغة . ونحن إن وافقناه على الثانية فلن نوافقه على الأولى ،

فهو معروف بين أقرانه بقوة العارضة وامتلاك ناصية المجلس بحديثه المسترسل الأخاذ ، الذي لا يخلو من طُرفة فكهة أو نكتة لاذعة ، فأين الصمت إذن من صاحب القناديل . ؟ وأول ما يشد إعجابك بالقنديل هو هذه الحيوية الدافقة التى يتميز بها ، فتجعل منه فى نظرك شاباً لم يتخط الثلاثين . فهو يشترك بقلمه فى عدة مجالات ، اشتراكاً يضنى العزائم الشابة بَلْهَ عزيمةَ رجل أشرف على السبعين من العمر أو كاد .

فهو من رفقاء الشاعرين الكبيرين : محمد حسن عواد وحمزة شحاتة ، درس معهما بمدرسة الفلاح بجدة وتحمل معهما أعباء المسئولية الأدبية خلال نصف قرن من الزمان أو يزيد ، وقد كان يُهدي بعض قصائده التى ينشرها إلى زملائه لسبب من الأسباب ، ومن ذلك قصيدته التى بعنوان (الوردة الحمراءُ . .) . . كتب عليها : مهداة إلى الصديق الشاعر الممتاز الأستاذ حمزة شحاتة ، وهو فى هذا الإهداء يثبت صلته

وصداقته لحمزة شحاتة ، كما يشهد له بالامتياز في الشاعرية . . وقد رمز القنديل بالوردة الحمراء فيما يبدو – إلى جانب من جوانب الحب والهوي ، أظلته مع صاحبه فيه دنيا الشباب ، أو هو يرمز إلى جانب فلسفى قد ترجّحه بعض أبيات القصيدة ، يقول :

الوردةُ الحمــراءُ يا صاحبى
قطفتَهــا دونىَ ، فلتَسْعَـدِ

مدّت إليك الثّغرَ فى فجـرِها
بسـامة الثغـرِ إلى المـوردِ

ثم يقــول :

يا وردتى قد قلتُ يا وردتى
وأنتِ فى كفٍّ ســوايَ النَّدِي

فى كف مَنْ أولاكِ من عطفِــه
العطفَ مستــورًا وفى مَشْهدي

ومن حبَاك الحبَّ من فيضه
يبيت دامى القلبِ كالمسْعَد

من الورود كُـونى كما يُرتجَى
من الورود الحلوةِ الخُـرَّد
فى نضْرة الوردة لا عمْـرِها
وفوقَ ثغرِ الغصنِ لا فى اليَـدِ
فما يفيضُ الحسـن لا ينتهى
أحمَرُهُ الزاهى إلى أسْـود
فالأملُ السـامى إلى فكرةٍ
إن خاب .. غاب العمْرُ فى مَلْحَدِ

ففى الأبيات الثلاثة الأخيرة بعض اللمسات الفلسفية الخفيفة ، حيث أشار إلى الفرق بين نضرة الورد وعمره إلى : سرْ مديّة الحسن ، وأن خيبة الأمل المتطلع إلى فكرة مّا قد يكون ثمنها عمر إنسان . ثم يقول :

فإنهـا الوردة فى سـرّها
سر الهـوى المستتر السرمدي
وإنهـا الفتنـة ولاّدة
لا تنتهى إلاّ بما تبتـدي

وإنهـــا الحيـــــرةُ فتّــانة
يضِلُّ فيهــا هــدْيَهُ المهتــدي

هيهات يَعْرَى الجسمُ يا صاحبي
من رُوحه ، والروحُ من موقــد

والاتجاه الفلسفى يظهر بوضوح فى قصائد أُخري للشاعر ، منها قصيدته (دنيا الغد) ، ومن السهولة بمكان أن نضع التفسير المناسب لهذه الظاهرة الأَدبية لدى القنديل وطبقته كحمزة شحاتة ومحمد حسن عواد وحسين سرحان . . إنهم طبقة استطاعت أن تخرج بشعرها من قيود البديع وأغلال التقليد المسطري للقدماءِ ، ولكنهم وقعوا فى مجال مغناطيسى آخر كان انجذابهم إليه نتيجة لقراءتهم للشعراءِ العرب الفلاسفة من القدماءِ ، وقراءتهم لشعراءِ محدثين كشوقى وحافظ . كما كان نتيجة لرغبتهم أن يقابلوا الفقر الفكري الذي سبقهم بموجة مضادة . فقد كان شوقى وحافظ

يحشدان بعض أسماءِ علماء الفلسفة والاجتماع وغيرهم في أشعارهم ، كما كانا ينظمان بعض ما يقرآنه أو يسمعان به من أفكار فلسفية ، دون أن يكون لهما من ذلك أي رصيد فكري خاص فى الغالب ، ومؤرخو أدب هذين الشاعرين يعرفون الكثير من هذا القبيل ، ولقد قال ابن رشيق قديماً فى (العمدة) : والفلسفة وجرّ الأخبار باب آخر غير الشعر ، فإن وقع فيه شيءٌ من ذلك فبقدْر ، ويجب ألا يجعلا نصب العين ، وإنما الشعر ما هز النفوس وحرك الطباع .

يقول شاعرنا القنديل فى قصيدته (دنيا الغد) بعد أن يحشد أسماءَ الرسل الكرام مع الفلاسفة والمفكرين كسقراط وروسو ، وبعد أن يجمع بين أثينا وأورشليم ومكة فى وِزان يقول :

فيا حلُمَ الفلاسفةِ المفدّي
ومسعى الطامحين له استعدّوا
أطلّى بالسلام على قلوب
إليه ـ وقد براها الشوقُ ـ تَعْدُو

وبالحب استفاض هوًى وعدلا
تساوَى فيهما شعبٌ وفَرد

وبالحرية المُثْلَى : منار ،
بناه بالدّمِ الحرٍّ الفِرَنْدُ

وبالأُمَمِيّة العظمى : مثالًا
إلى فجر الإخاء أطلٌّ يشدو

هىَ الأزمانُ ما زالت ضروباً
تعاورَ سيْرَها جَزْرٌ ومَدٌّ

وللقنديل اتجاه إلى التفاؤل يشبه إلى حد كبير ما عند إيليا أبى ماضى ، ومن ذلك قصيدته (الشاعر الحزين) التى مطلعها :

يا هزارًا ثوَيْتَ فى وكركَ الآنَ
صَموتا بعد الترنُّمِ حينا

غير آهاتك الطويلةِ تُزْجيها
زفيرًا بين الأسى ، وأنينا

ما دهَى روضةً شــدوتَ زمانا
فى رُباها ، فكنتَ عنها المبينا؟

وهو مطلع تشيع فيه رنة الحزن وتغلفه الحسرة على ماض وثير قضاه الشاعر فى أحضان السعادة وجنبات الرياض الغُنّ والربى الخضر فى غناء شجى وصداح حالم ، ثم يخاطب هذا الهزار وهو لا يعنى إلا نفسه :

يا هزارًا بات الضَّنَى مستبيحا
جسْمَهُ الغضَّ فانزوي مستكنيا

أدرسْتَ الحياةَ فى صفحةِ الحسنِ
ويمَّمْتَ بغيــةَ الدّارسينا

فتصنّعتَ مسْحــة الحزنِ حتى
عاد فى القلب ساكنا ومكينا

أم مللتَ الحياة فى النسق الواحد
تبــدو ، وإنْ أفاضَ فتــونا

عادةَ النادرِ الطبائعِ فى الناس
وطبْعَ النــوابغِ النابهينـــا

أَن ترى غايةً السرور وإن طالَ

شُجونا تُرْوي العيونَ شـؤونا

إن سمة التفاؤل لا تفارق شاعرنا القنديل ، وفى ذلك التساؤل يجد شيئا من الراحة النفسية التى تتيح له فرصة تفريغ ثورة نفسه فى قالب لفظى مقروء وتصوير شعري مشهود ، وفى الوقت نفسه يعكس هذا التساؤل انطباعات الشاعر الخاصة حول بعض قضايا الإنسان مع الحياة ، فهو يتساءل عن مصدر الحزن : هل هو تصنع تمكن من القلب ؟ أو هو ناشىء من النظرة القاتمة إلى الحيـاة ؟ أو هو ناجم عن الملل من جريان الأمور على نسق واحد يفتقد جمال التنويع والتغيير الذي تتعلق به طبائع النابغين والنابهين . . لم يعط الشاعر إجابة نهائية ولكنه يفتح أمامنا الآفاق المتعددة ، ويترك لنا حرية الإجابة بما يتناسب مع أوضاعنا ومداركنا وعلاقتنا بالحياة .

وفى المقطع التالى تتجلى دعوته إلى التفاؤل بوضوح وتشرق فى أضلاع الكلمات وثنايا الحروف فيقول :

أيها الشاعرُ الحــزين حنانيْكَ
بنفس لا تستحــقٌ الشجــونا

طِزْبِها فى عوالم الأُنْس فالكــو
نُ طروب ـ إنْ شئْتهُ ـ لا حزينا

والحياة الكبرى العصيّةُ لا ترضَخُ
إلا للمعشــــرِ النابغينـــا

لِلكبير الآمالِ . للباسم الثّغــرِ ،
لمن يكتُمُ السقــامَ الدفينــا

لِلقويِّ القويِّ يصرعُهُ اليــأْس
فيــأْبَى لنفســـه أن تلينا

للأَبىِّ الأَبىِّ ، للسائرِ الســائر
لا ينتحى السكونَ رُكونا

ويستمر القنديل فى الحديث بهذه الروح الإيحائية البناءة المتفائلة ، التى تدعو إلى القوة والتمسك بالحياة ورفض الاستسلام والتخاذل والسكون ، إلى أن يختم القصيدة بقوله :

أيها الشاعر الحزينُ وما كنتَ
حزينا وما نَرَي أن تكـــونا
قُمْ وزلزِلْ دنياكَ بالقول والفعل
وأشرِقْ من بعْدُ فيها وفينـــا

ومن شعره التفاؤلى أو الذي له صلة مباشرة بالطبيعة قصيدته « البلبل » التى فاز بها الشاعر عام ١٣٦٥ هـ فى المسابقة الشعرية التى أقامها القسم العربى للإذاعة البريطانية ، ونال بها الجائزة الثانية بالنسبة للعالم العربى كله ، ومطلعها :

الروضُ ما معنـــاه يا بلبـــلُ
إن لم تُغرِّدْ فيه ، أو تمرحِ . ؟
والزهر مَنْ يسكبُ فى ثغــــره
سحرَ الهوي إن أنت لم تصدح.؟

والجـدولُ الرقراقُ ما حالُه
إن غبْتَ عنه جانباً تنتحى . ؟

والفجرُ منْ يلقاه إن لم تطِـرْ
فى ضوئه الساجى ولم تَسْبح . ؟

والوردة الحسنـاءُ من ذا الذ
ي يثير فيها غَيْرةَ المستحى . ؟

إن لم تغازلْها تبثُّ الهـوي
للروض بسّاما وتشكو الجوي

للفجـر والزهرة والجدولِ . ؟

وهى نجوى فيها كثير من الرقة والعذوبة والسلاسة والإنسياب العاطفى الجميل ، والاستغلال الجيد لمظاهر الطبيعة ، والإشارة إلى أن الجمال يلد الجمال وينشر على الكون وشاحه الملون بالبهجة والفرحة والسرور ، فترانيم البلبل تعطى للكون معناه الحقيقى ، وتسكب فى ثغر الورد سحر الهوي ، وتضفى على الجدول رونقه وجماله ، وتورد الأزهار ، وتهىء

للفجر جواءه الماتعة . ونلاحظ أن الشاعر وقع فى خطإٍ لغوي شائع ، وذلك فى قوله المسْتحِى بياءٍ واحدة ، والصحيح أنها بيائين أولاهما مكسورة وهى عين الكلمة ، والثانية ساكنة وهى لام الكلمة ، وبها استحق الاسمِ أَن يندرج فى عداد الأَسماءِ المنقوصة فيقال : المستَحْيِى . وهذا الخطأُ شائع عند كثير من الناس حتى أننا أَصبحنا كثيراً ما نشاهدهم يكتبون على اللوحات فى المناسبات المختلفة الحديث الشريف « إذا لم تستحْيِى فاصنع ما شئت » من غير ياءٍ فيقولون لم تستَحِ ، متوهمين أن هذا الفعل بياءٍ واحدة وقد حذفت للجزم ، والصحيح أَنه بياءين كما قلنا ، تحذف الأُخيرة للجزم وتبقى الأُولى .

وبعد هذه الجولة اللغوية التى رأيت من الضروري التنبيه عليها ، نعود إلى قصيدة البلبل . يقول القنديل:

يا باعثَ الفتنـــةِ زخّـارةً

بالحســـن مطبوعًا على ما بِهِ

وناثـرَ الفـرحةِ رفـرافةً
في لحنـه المسكوب من قلبه
الشـاعر الفنـان فيما شـدا
منكَ استمدّ الوحْيَ فى غيْبه
واللاعبُ اللاهى وأتـرابُه
منكَ استعار الصدقَ فى حبه
والغادةُ النجـلاءُ فى خدرها
والعاشـقُ المضنَك فى كَربه
مدا إليك السمع حتى ارتوى
قلبـاهما : قلبٌ يخاف النّوى
هجـرا ، وقلبٌ حنَّ للأّولِ

وكما أَحب شاعرنا القنديل الطبيعة وغناها بكثير من قصائده وضمخ الحديث عنها بـأَريج الحب ومعانى الهيام فإنه قد غنى الهوي بـأَلحان عِذاب ، وداعب أَوتار القلوب باللفظ الرقيق والتصوير الرائع الأَخاذ ، ومن ذلك قوله بعنوان « الجواب الضائع » :

قال لى والتلالُ قد لفّها الصَّمْـ
ـتُ ، كما لفَّها الهوي بردائهْ

ويمينى تحيطُ عِطفَيْهِ ، والبد
رُ مطِلٌّ ، واللّحظُ فى اللّحظِ تائهْ

وابتساماتُه تفيض حنـــاناً
ودَلالا يزيد فرْطَ بهائهْ

كيف أحبَبْتنى ؟ فأنكر ما قا
ل بإيماة الهـــوي ، وذكائهْ

فتضاحكتُ حائـــراً مستزيـــداً
سُؤْلَه المشتَهى برغم خفـــائه

فرنَا ناعسًا يشاركُنى الضِّحْـ
ـكَ ابتساما ينوب عن إصْغائه

واستحىَ ـ والحياءُ فنٌ من الحسـ
ـن ـ وضاع الجوابُ فى استحيائهْ

ونلاحظ أنه أَورد كلمة استَحْيَى فى بداية البيت الأَخير غير صحيحة ، فقال : « واستحىَ » ثم أَوردها صحيحة فى آخره حيث قال : « فى استحيائه » وهذا

مما يؤكد أن خطأه ناتج عن سبق اللسان وتقليد الشائع من الاستعمال .

وأبيات هذه المقطوعة فيها كثير من التناغم اللفظى وجمال التصوير ، ولعل ذلك راجع إلى صدقها وبعدها عن التقمص والتزييف ، فالصمت يلف التلال كما يلف الهوى هذين المتحابين ، فهما من الطبيعة فى خدر خادر ، والبدر يطل من وراء التلال الصامتة ليشهد هذا اللقاءُ الذي تاه فيه اللحظ وتشابكت الأيدي وانتشرت البسمات الحانية وتناثرت الضحكات النشاوى وضاع فيه السؤال من الشفاه .

ومن شعره الغزلى أيضاً قصيدته التى بعنوان « ما الذي فيك ؟ » وهى من الشعر المقطوعى ويبدؤها بقوله :

ما الذي فيكَ يا معيدًا إلى القلب صباه من بعدِ أن صار كهلا؟
ما الذي فيك يا مُزفًا إلى الصَّبِّ حياةً جديدة لن تُمَلاّ ؟
والذي تعبس الحياةُ إذا غاب ، وتبدو بسّامةً إن أطلاّ ؟
كل ما فيك فاتنٌ يَعْجزُ اللفظُ إذا رام للذي فيك حَلاًّ
وإذا شاء أن يحدد معناك تناهى فما يكاد يُبيـــنُ

وبعد هذا المطلع راح القنديل يفلسف بعض المواقف واللفتات الحلوة ويحاول أن يضع بعض التفسيرات لعلاقته فيقول :

فهو ماذا يكون هذا الذي تربط قلبي به إليك ضَلالا . ؟
لاتقلْ إنه الجمالُ ، ومايفعل الجمالُ فيمن على الجمال تعالى؟
لا ، ولا تدّعيه ودًّا به الناس على غيرها تصيبُ الكمالا
ليس أَمرُ الجمالِ والودِّ إلاّ متعةً تنقضى وإلْفا تغالى
فتفنَّنْ فى الظن ينكشفِ الأَمرُ فيما ، طالماً تعيب الظنون

ثم يؤكد فى آخر القصيدة أنه لا شىء ربط قلبيهما غير الحب ، ويقول :

حسبُ قلبى أَن يستهيم بما فيك وعينى أَن تجتلى مرآهُ
ولْتعشْ أَنتَ يا حبيبىَ مصباحَ فؤادٍ ذاق الهويِ ورآهُ
ولْيهِمْ عقلىَ الصغيرُ ضَلالا فى الدياجى مُستنطقا معناه
ولتكنْ حيرتى الكبيرةُ للفنِّ وَقُوداً ، هيهاتَ تخبو لظاه . !
فإذا قلتُ مرة ما الذي فيك ..؟ فإنى بالسر فيك ضنينُ

وفى حفلة تكريمية أَقامتها نخبة من رجال الأَدب والفكر للأَستاذ الأَديب عبد الوهاب آشى أَلقى القنديل قصيدة ميمية تناهز السبعين بيتاً صور فيها كفاح

أصحاب الفكر والأدب وإخلاصهم لبلادهم وسهرهم من أجلها ، وتصميمهم على المضى بها قدُماً فى طريق الخير والإصلاح والنهوض ، بدأها بقوله :

نفضُوا القلوبَ إلى القلوب وأقسموا
يوم الجهاد بأنهم لن يُحْجِموا

وسعَوْا إلى شرفِ النضال تهزّهمْ
للساميات عقائدٌ لا تُهْزَمُ

وتقسّموا لُجَجَ الحياة فعاثرٌ
يكبو ومنطلقٌ لما يتسنّم

وغراسُ جيلٍ لو تفيّأَ نبتُه
ظلاًّ لأزهرَ نَوْرُهُ المتكمِّم

الرائدَ المجهولَ كان رعيلُهمْ
والثابتون على الغِلابِ همُ هُمُ

والفكرُ فى فجرِ الحقائق صارمٌ
فى كفِّهم يجلو الصَّدا ويقوِّم

والفن فى فجر الحيــاةِ بروحهِــمْ
أَلَقٌ يمـدّ سنى الحياةِ ويُلهِم

وبعد أن تحدث عن إسهام عبد الوهاب آشى بقلمه فى النهضة الأدبية ببلاده واهتمامه بالتاريخ فى مقالات وبحوث عديدة ، عاد فتوجه إليه مباشرة بالمقطع التالى :

يا أيهــا المَثَلُ المكرَّمُ بيننــا
رمزاً يطيب به الولاءُ ويَعْظُـــم

إنا نكرِّم فيك نزهةَ مطمحٍ
ضخمِ المـنى لسبيله يتقــدَّم

وعقيــدةَ غبَرَ الزمانُ ولم تــزلْ
بين الجــوانح حرةً تتضــرم

ومُنًى تضيق بها المنى لو أعربَتْ
عما نريد من الحيــاة وتلجم

وبعد هذه الجولة القصيرة فى شعر القنديل على كثرته وتنوع أغراضه وتباعد مستوياته نعود لنقول :

إن شاعرنا أحمد قنديل كان طول عمره الفنى كتلة من نشاط لا يعرف الكلال ، يكتب الشعر الفصيح والعامى ، كما يكتب للصحيفة والمذياع والتلفاز ويحب أن يسم أعماله الفنية بسمة ظاهرة لها علاقة باسمه ، وقد يكون مرد ذلك إلى ما فى اسمه من تطابق مع ما يريد ، أو إلى حب عارم لاسمه نابع من حبه لذاته ورغبته الجامحة فى الخلود ، وهو ما نجده عند بعض الشعراء حين يسمون دواوينهم الشعرية بأسمائهم كالأيوبيات والألمعيات والشوقيات وديوان القروي . ولكن القنديل على كل حال من شعرائنا الرواد الذين تعتز بهم دنيا الأدب فى هذه الديار .

* * *

عبد السلام هاشم حافظ

يهمنا بالنسبة لشاعرنا عبد السلام هاشم حافظ ، أن نسرع بتسجيل ميزة له ، لا نعرف أحدا من شعرائنا يشاركه فيها ، وهي غزارة الإنتاج وتنوعه ، فمؤلفاته تكاد تكون بعدد سنييّ حياته التي جاوزت الأربعين ، كما أنه كتب القصة والبحث الأدبي والتاريخ والشعر ، وإن كان الشعر بلا شك يحتل من مؤلفاته المكان الأول من حيث الكم ، والنثر يستأثر بالجودة من حيث الكيف . ولقد كان لهذا التنويع الذي يصر عليه : أثر ظاهر على مستواه الفني ومكانته الأدبية ، وهو أمر طبيعي لا غبار عليه . ونتساءل عن مصدر هذه الطاقة الهائلة التي يمتلكها شاعرنا عبد السلام رغم ظروفه الصحية ، نتساءل فتتملكنا الدهشة ويشدنا الإعجاب ، ولا يسعنا إلا أن نشد على يده ونبارك خطواته ، ويحدثنا هو عن إصراره وكفاحه الأدبي في ملحمته : (راهب الفكر) التي نشرها عام ١٣٧٤ هـ فيقــول :

أنا لوعةٌ شوهاءُ يهواها النُّــواحْ
أنا ليلُ أحزانٍ تجاهلَهُ الصبــاحْ

* * *

أنا عالمٌ ضلّت بمركبه الحيــاه
فغدا يصارع مَوْجَها العاتى الرّهيبْ

قلبى المجرّحُ لا يجابُ على نداه
والهمُّ يأْكل فيه ألحان اللهيب

أحيا بآلامى الكئيبة فى مَتــاه
شطّ السلامة من جحيمى لا أراه

* * *

أنا سرٌّ مجهولٍ تعثّر فى الطريقْ
الدهر كبَّلَ خطوه ، أدمَى ضياهْ

سأَعيش رغم الليل والأَلم العميق
بالرغم من دائى وما يفنى مداه

سأَعيش بالحرمان أعتصر الرحيق
من كرمة الأَوهام والأَمل الخصيب

وهو يذكرنا فى صراعه مع المرض والألم بالشاعر التونسى الكبير أبى القاسم الشابى ، الذي عاش يكابد الأدواء بمرارة ، ويعتصر من قلبه أناشيد رائعة وقّعها على قيثارة الحياة ، فسالت دموعاً وأحزاناً ، فيها الرنين والنشيج والإعوال ، فهو القائل :

سأعيش رغم الداءِ والأعداءِ
كالنسـر فوق القمة الشمّاءِ

ولشاعرنا عبد السلام دواوين شعرية عديدة ، وأكثرها مطبوع في دور نشر شهيرة ، وقد قدم بعضها بأقلام مشاهير الأدباءِ والشعراءِ ، كالناقد الكبير الدكتور محمد مندور ، وشاعر الشباب أحمد رامى الذي كتب له مقدمة شعرية لديوانه (الفجر الراقص) فقـال :

يا شاعرًا يشدو بفجر راقـص
أثبتت بدْعا من خيال الشاعر
صورا من الدنيا جلوتَ جمـالها
فى صفحة من كل معنى نادر

وقّعت أَنغاماً يطيبُ سماعُهـا
لمتيّـمٍ فى حبّـه أَو سادر

وجمعتَ زهر الحسن من روض الجَنَى
فى باقةٍ تَنْدي بعطرٍ ساحر

ناجيْتَ أَرواحَ الحيارَى فى الهوى
وعمرْتَ دنيا كلّ عانٍ حائـر

ووصفتَ مايشكو المحبُّ من الضّنَى
ويذوقُ من أَلمِ الجمال الجائر

وشرحتَ شوقَ الروح للوطن الذي
تهفو له بجـوانحٍ وخـواطر

* * *

يا شاعري ناجيتَ ربَّك مخلصا
ورجوتَ رحمتَه بنجوى الصابر

فاغنَمْ رضاه عنك واسعَدْ بالمُنَى
من عطفـه فى أَوّل أَو آخر

وابعثْ غذاءَ الروح من إلهامه

في كل زهر من خيـالك ناضر

واملأْ مجال الكون بالنور الذي

أرسلْتَـه من أُفـق فجرٍ غامر

والشاعرِ عبد السلام حافظ كثير الأَسفار إلى البلاد العربية والأُوروبية للاستشفاءِ ، وويل لقلب الشاعر من مجالى الفتنة والجمال ، يلمحها فى الطبيعة الضاحكة الزاهية ، ويراها أينما حل فى مناظر ساحرة فاتنة ، وما أسرع استجابته للإغراءِ . ! وفى إحدى رحلاته هذه كان يسير على جسر جمال باشا فى أضنة بتركيا ، يتملّى ويتذكر ويعتبر ، فقال فى تلك المناسبة قصيدة بعنوان : (إلهام من الشمال) منها :

رآها وفى مقلتيه جلال الهوى والحنين

وفى ناظريه شرود وهمسٌ وذكرى أنين

أفاتنةَ الروح مهلا ففى الدرب قلب حزين

رأى فيك أحلامَه تستفيق بكل الفنون

فغنّاكِ أنشودة من لهيب الصِّبا والفتون

رآها وفى جانحيْهِ ضرام وبُقيا رفات
تَميسُ بدلٍّ الجمال النقيِّ وصدق الحياة
فأتبعها نظرة الشوقِ والوجد والأُمنياتْ
وأَقصر دنيا المباهج تشدو مع الذكريات
وهيكل فنٌ بديع تضِلّ به الخاطرات

وفى إحدى رحلاته الاستشفائية إلى القاهرة كتب قصيدة رقيقة فى الحنين إلى مسقط رأسه بعنوان (الشوق يا وطنى) قدم لها بقوله : « قدّر لى أن أبقى بالقاهرة تحت الإشراف الطبى ، وطالت الغيبة عن الوطن وعن مسقط رأسي : المدينة المنورة ، حتى أصبحت اللهفة عليه دونها أي شوق » .

ومما جاء فى هذه القصيدة قوله :

داري ، ويا سرَّ الهوى الباقى وأوطانى
يا طيبةَ النور . . يا روحى ووجدانى !

الشوق ! يا ما أَمرَّ الشوقَ فى كبدي . !
على مدينتنـــا ، والمسكن الحـانى

عامٌ وأكثــره ولىَّ ، وزدت جوًى
في مصر مغترباً والشــوق أضنــانى
أنقّل الطرفَ : أين الأُمُّ .؟ أينهمُ .؟
أهلى ، وموطننا الغالى ، وإخــوانى
أين الصحابُ الكرامُ الصِّيدُ تنظمنا
مجالس الأُنس فى صفو وتحنان .؟
بعدتُ عن عالمى المحبــوب فى وطنى
والقلب يأْسى بلوعاتى وحــرمانى

وفى المدينــة أحلامى وعاطفـــتى
وذكريات الصّبـــا والمأْمل الدانى
سرّ الجــلال بها ، والله كرّمهـــا
بالدين والنـــور فى وحى وقرآن
أوّاه من شوقى المحمــوم يشغلنى
عن كل أمر سوي داري وأوطانى
ربّاه حقــق لنا عودًا قريبــاً له
لا شئ عن وطنى يدعو لســـلوان

فهو يتشوق إلى الأرض العابقة بذكرياته وأحلام طفولته ، ويبدي الحنين إلى أمه وإخوانه وأصدقائه فيها ، وكل مظهر من مظاهر أنسه وهناءته ، كما يهنو إليها قلبه كمهبطٍ للوحي ومأرز للإيمان ، ويعلن أنه لا يوجد فى الكون على رحابته ما يجعله ينساها . وهذه بلا شك عاطفة مخلصة يحركها الوفاءُ ، ويهذب حواشيها شعوره بسورة المرض الواقع تحت وطأته . ولو توافر لهذه القصيدة الإطار الجميل لاحتلت مكانة فنية مناسبة .

وللشاعر عبد السلام فى هذا المجال عديد من القصائد فصراعه مع الغربة والمرض طويل وطويل جداً ، ولكنه لا يستسلم ولا يتخاذل ، لأن قلبه عامر بالإيمان مسلّم بالقضاءِ والقدر . ومن ذلك ما قاله فى قصيدة له بعنوان (مغترب) أهداها إلى أحد أطبائه المعالجين :

عامٌ مضى ووجدته أقس السنيـــنْ
فى بُعْدنا عن طيبة الحبِّ المكينْ

لم يُسْلنى عنها بمصر منـــاظرٌ
أبدًا تمرّ فلا أرى إلا الحنيــنْ

قد كنت أحمل علّتى وغيــومَها
ورجــوت أن أَجِد العــلاج يزيلُها

وأتيتُ بالأمل الكبيــرِ لعــله
يُهدي الىَّ ندى الحيــاة ونورَها

هو ذا الزمانُ وهذه أتعــابه
وتنــاقضُ الأشيـــاءِ فيه يُشيِّب

ونلاحظ هنا أنه لم يلتزم قافية واحدة ، بل زاوج بينها ، وهى طريقة اتبعها شعراؤنا المحدثون للتخلص من رتابة القافية الموحدة أحياناً ، وللتخفف من أعبائها أحياناً أخرى ، فإن القافية لا تنقاد لكل الشعراءِ بسهولة ، لأنها تحتاج إلى ثروة لغوية مكينة ، تسعف باللفظة المطلوبة للتقفيــة فى وقتها المناسب ومكانها الملائم ، دون ضعف أو نشاز ، وذلك مالا يتيسر لجميع الشعراءِ . وفى البيتين الثالث والرابع

ارتكب الشاعر[1] خطأين واضحين في قافيته ، فالبيتان منتهيان بهاءِ الغائبة :

قد كنت أَحمل علتي وغيـــومها
ورجوتُ أَن أَجد العـــلاج يزيلُها
وأَتيت بالأَمل الكبيـــر لعله
يُهدي إلىّ نـــدى الحيـــاة ونورَها

وقداعتبرها رويًا لقافيته ، ثم ضم اللام التي قبلها في البيت الأَول (يزيلها) وفتح الراءفي البيت الثاني(ونورها) ، والمقرر في علم القافية أن الرَّويّ في مثل هذه الحالة هو الحرف الذي قبل هاءِ الغائب ، فيجب التزامه بحركته الخاصة مع الهاءِ أيضاً .

ولشاعرنا عبد السلام تجارب كثيرة غنية بالجدة والحياة ، وله محاولات ملحمية وقصصية جيدة ، كملحمة راهب الفكر ، وأَضواءُ على المجهول . وهو متعدد الاتجاهات والمشارب ، تدل أَشعاره على أَنه كان على صلة وثيقة بالثقافة الحديثة ، كما أَن إهداءَاته

(١) لبعضهم رأى صريح فى تعامل الشاعر عبدالسلام مع الوزن والقافية ، اكتفيت هنا فيه بالاشارة ، كما ألمحت اليه فى مقدمتى لاحدى دواوينه .

الشعرية فى دواوينه تكشف عن صلاته ببعض النوادي الأدبية فى العالم العربى ، كجماعة الأدب الحديث فى مصر ، كما كان على صلة بشعرائنا الكبار داخل المملكة ، فهو أديب نشيط دءُوب الحركة ، كثير القراءة والكتابة ، لا يعرف الكلال ، وكتبه المطبوعة تشهد بهذه الحقيقة وتؤكدها ، فقد قلت فى أول هذه المكتوبة : إن كتبه تكاد تكون بعدد سنيٍّ حياته .

وأهم ما يميز شاعرنا عبد السلام حافظ صدقه الفنى الذي نلمسه بصفة خاصة عندما يتغنى بحبه لأفراد عائلته وإخلاصه لأصدقائه وأصفيائه ، فقد حبرت يراعته الرقيقة كثيراً من القصائد التى صاغها من عمق أعماق نفسه ، وتغنى فيها بحنان أُمه التى سهرت عليه ورعت آلامه ، وأخذت بيده إلى أن شبّواكتمل فناناً شاعراً ، بل أهدي إليها بعض دواوينه ، كما تحدث عن فرحته بالأهل والولد .

وإنى أجد نفسى ملزماً فى حديثى عن الشاعر عبد السلام أن أُورد مقدمة الناقد الكبير الدكتور

محمد مندور لديوانه : (أَضواءُ ونغم) ، ففيها إفصاح ملحوظ من هذا الناقد عن بعض الاتجاهات الشعرية عند شاعرنا ، وفيها بعض التقييم لإنتاجه الشعري وشخصيته الأَدبية . يقول الدكتور مندور : « ليست هذه الكلمة تقديماً للشاعر الحجازي عبد السلام هاشم حافظ أَو ديوانه « أَضواءُ ونغم » ، فالشاعر قد قدم نفسه من قبل إلى قراءِ العربية بعدد من المؤلفات التى تختلف بين الشعر والنثر ، مثل : (مذبح الأَشواق) ، (وراهب الفكر ، (والعذراءُ السجينة) ، (وسمراءُ الحجازية) ، وكثير غيرها .

وكلمتى أَيضاً ليست دراسة لهذا الديوان ، الذي لا يصح فصله عن مؤلفات الشاعر الأُخري ، بل يجب أَن يدرس فى حلقة لسلسلة إنتاجه الغزير المتواصل ، وإنماهى كلمة تحية وتنويه لهذا الديوان الجديد ، الذي يجمع بين الحوار الشعري وبين القصيدة الوجدانية والوطنية فى أُسلوب رصين ونغم قويم ، والشاعر

يسمى حواره الشعري:(أضواء على المجهول) مسرحية شعرية في أربعة مشاهد ، ولكنها فى الحقيقة ليست مسرحية يمكن تمثيلها على خشبة المسرح ، بل هى حوار شعرى بين الشاعر والطبيعة ، وصوتِ المجهول ، وشخصيات أُخرى رمزية أو مجردة ، على نحو ما فعل من قبل شاعرنا العربى المعاصر على محمود طه فى كتابه : (أرواح وأشباح) وهذا اتجاه يحمد لشاعرنا ، لأنه يعتبر مساهمة فى تأصيل صورة أدبية جيدة فى شعرنا المعاصر ، وهى صورة الحوار ، ويقابلها فى النثر ما فعله الأستاذ توفيق الحكيم عندما أعلن عن رغبته فى أن يجعل الحوار النثري صورة أدبية قائمة بذاتها ، حيث يستطيع الأديب أن يستخدمها فى التعبير عما يجد من مشاعر أو خواطر . بل وكتب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في صورة حوار ومشاهد ، تستعرض حياة النبي وحياة الرسالة كلها .

أما عن قصائد ومقطوعات الشاعر عبد السلام حافظ فمن ألطفها شعره فى زوجته وفى طفليه وفى بهجة الحياة العائلية والفرحة بالولد ، وهذا لون نادر فى

شعرنا العربى ، بينما نراه شائعاً فى الآداب الغربية عند عدد من فطاحل شعرائها ، مثل هيجو ، الذي تغنى بهذه الأفراح أروع غناءٍ ، ونشر ديواناً بأكمله عنوانه : « كيف تكون جدّا .؟ » وفيه يتحدث أرق حديث وأجمله عن أحفاده ومداعبته لهم وفرحه بهم يتواثبون حوله ويحملونه على مشاركتهم ألعابهم البريئة .

والشاعر عبد السلام حافظ يبدو لى من عشاق الأدب عامة والشعر خاصة ، فهو مخلص لفنه دائم التغنى به والإنتاج فيه ، ومن المؤكد أن إخلاصه للفن الجيد يستحق كل الإعجاب والتقدير » .

ولا أحد يشك فى قيمة آراءِ الدكتور محمد مندور حين ينشرها بصراحة ووضوح ، دون مداراة أو مجاملة . ويهمنا الآن أن نورد بعض النماذج من شعر عبد السلام العائلى إن صح هذا التعبير ، فمن قوله يهنىءُ أخته بزواجها :

يا قلب هذي فرحة العمر الوليدْ

جاءت مع العيد البهية بالسعــود

يا فلعة اليُمْنِ الطروبة بالوجود

بتآلف الزوجين بالعهد السعيد

وبمناسبة مرور عام على ميلاد إحدى بناته يقول :

غنّى الوجود وردّد الكونُ الصدى

وبكلّ أُفْقٍ راح ينبعث السعــودْ

متهلّل فى عيــد ميلاد السـنَى

ميلاد عام مزهر زاهى الورودْ

ويقول بمناسبة ميلاد أحد أبنائه :

يا ابنى الحبيب ومعقد الأمل الكبير

ميلادك الذكرى تردّده العصور

عش فى رعايتنــا فأنت صبــابة

للوالدين الشــاديين مع البكور

تلغو وتهتف بيننــا أحلى نشيدْ

ومنذ أن كان فى الدنيا شعر وغناءٌ موقع عرف الشعراءُ الغزل الدافىء والحب المخضوضل بالفرحة والرضا ، أو الممزوج باليأس والحرمان ، ومع ذلك نجد رواد هذا الفن الشعري الرائع يصرحون أنهم لا يزالون عند السطر الأول فى سفر حواء . وشاعرنا عبد السلام من المدمنين على القراءة فى هذا السفر الضاحى ، المزهوّ الحروف المجنح الكلمات ، ومن قصائده فى ذلك :

من أين عدتِ بتذكاراتنا الحلوة
بالحب .. بالحلُم الماضى مع النشوه
الطيف أبصـــرته فتّان مزدهيـــاً
بالحسن يسلبنى الإحساس فى الخلوه

* * *

يا أنت .. يا حبى الشادي على الزمن
أذكيته هاتفاً بالروح يا فَنَنى

روّعتـــه ونكأت الجرح ثانية

يدمَى على أمسه ، يلتاع بالشجن

***

ذكراك عادت وصفو الحب ما عادا

هذِي مشاعره والشوق قد زادا

ليت الحظوظ تعيد الأمس ثانية

كما تواري ، ويأتى الحسن منقادا

***

كانت لنا قصّة أوّاه لو رجعت

هى الحياة وأنت القلب والناضر

أوّاه يا مرفأ الذكري على الغادر

على هواي وأحلامى ، على الحاضر

ويري شاعرنا أن الحب ضرورة كونية تحمل فى تضاعيفها سر الحياة ، فيه تتآلف النفوس وتصفو القلوب ، وتزول الضغائن والأحقاد ويعمر الكون ، وعناصر الطبيعة نفسها قائمة عليه ، سائرة على منهاجه:

من علّم البلبل الإنشاد فى السَّحَرِ.؟
من لقّن الطير ترنيماً مع السَّحَرِ

مَن رقرق السِّحْر فى قلب الحياة؟ ومن
عرَّى مشاهد هذا الكون للنظــر ؟

الحب لحّنها للنـــور أُغنيــة
تحلو بمسمــع هذا العالم البشري

* * *

من هدهدَ الروضة الخضراء بالنغم
وداعب الغصن فى أَشواق مبتسم؟

من لوّن الورد والأَزهار فانفرجت
أَكمامها بالشذا ينداح فى القمم ؟

الحب أودعها فى السرِّ نضــرته
يشدو العبير بها فى دوحة النغم

ويشترك عبد السلام حافظ فى الأَحداث الوطنية التى أهمت الأُمة العربية وأَقضت مضجعها ، وحولت حياتها إلى ليل دائم وسهد لازم ، وفجرت من ناحية

أخرى مكامن القوة فيها ، وشحذت بداخلها الحق والإيمان ، تلكم هى حربنا الضروس مع إسرائيل تلكم الحرب التى أسهم فيها العرب فى كل مكان ، وتحكمت فى تلوين صورة حياتهم ، وقد حملت المملكة العربية السعودية فيها الأعباء الثقال ، ولا تزال تواصل المسيرة حتى النصر إن شاء الله ، يقول عبدالسلام حافظ :

فتفجّري يا قدس ناراً عاتيـــة
تـأتى على الباغى .. تطهر ذاتيه
فإذا المجازر والمشــانق قصـــة
تُرْوَى ، فتلعنها النفــوس الضارية
تستقبل الفجــر المعطر ثانيـــة
ميــلاد أرضى عيــده رفّت رؤاه
وتطلعت لغــد تغنيـــه الشفــاه
يا دُرَّةَ الأوطان يومك شعشعت
أضــواؤه ، وبنــا تلألأ فى علاه
فإلى متى شعبى تبعثره الحياة . ؟

وبعد : فإن شعر عبد السلام حافظ لغزارته وتعدد مناحيه واتجاهاته ، لا يتسع له في الواقع مثل هذه العجالة ، ولكننا مع ذلك كله نأمل أن نكون قد استطعنا تقديم اللمحة الكاشفة والإشارة الوافية ، وحسب المرءِ من أية دراسة لشاعر من الشعراءِ أن يفعل ذلك .

سعد بن إبراهيم أبو معطي

شاعرنا أبو معطى من الشعراء المقلين ، قال الشعر أثناء شبابه ثم طوته الحياة الوظيفية فى ضبابها المعتم فلم يعد يُسمع له صوت ، وهذا الإقلال من جهة ثم قلة المراجع التى يمكن أن توفر للباحث المادة الكافية لكتابة بحث حول شعرائنا بصفة عامة ، تكوّن صعوبة كبيرة لا يتأتى اجتيازها بسهولة ، وتستدعى كثيراً من اللباقة الكتابية التى يتحقق على صعيدها التوفيق بين إحراج المراجع وتطلع جمهور القراءِ إلى شيء فيه جديد وفيه غَناءٌ . . وهنا يمكننى أن أسجل حقيقة تاريخية لا مناص من الاعتراف بها ، حتى نستطيع بصراحتنا أن نسهم فى إرساء قواعد الصرح وإقامة البناءِ ، تلكم هى أن أكثر شعرائنا لم تتهيأ لهم فرصة نشر أشعارهم فى دواوين يسهل الرجوع إليها ، وبعضهم تحت تأثير الدوافع المختلفة يضنّ بشعره ولا يحاول إرسال ما طلب منه بإلحاح ، ولعل النوادي الأدبية تستطيع أن تخرج بعض الشعراءِ من عزلتهم وتهيء

لهم فرصة طبع ما لديهم من دواوين[1] مخطوطة ، وتؤدي بذلك خدمة جليلة للشعر والشعراء في هذا البلد الحبيب ، وذلك بلا شك من أهم الأهداف التى أنشئت من أجلها النوادي وأوسعها ضرورة .

وشاعرنا أبو معطى من مواليد بلدة الشَّعْراءِ عام ١٣٤٨ هـ ، أنهى دراسته الإبتدائية بمدينة شقراء فى سن متأخرة ، إذ أنه لم يحصل على الشهادة الإبتدائية إلا عام ١٣٦٤ هـ أي حين كان عمره ست عشرة سنة ، وذلك لأنه كان يعيش فى منطقة لم تكن تتوافر فيها المدارس آنذاك ، ثم أكمل دراسته فى دار التوحيد فكلية الشريعة ، وكان لتفاعله مع البيئة الثقافية التى كانت تسود دار التوحيد أثر كبير على تفتق شاعريته واهتماماته الأدبية ، وقد سبق أن ذكرنا أن لهذه الدار فضلا كبيراً فى هذا المضمار ، وأنه كان بها ناد أدبى يضم نخبة صالحة من الشادين فى الأدب . ومن القصائد التىبين أيدينا لهذا الشاعرقصيدة بعنوان (النادي)يقول فيها :

(١) وبالفعل بدأت النوادى الادبية فى تحقيق هذه الامنية ، حيث باشرت باصدار بعض الدواوين .

هل شجاكَ الشعرُ محبوكَ القصيدْ
طافحاً بالفن من كل جـــــديد
مشرقاً كالشمس لمَّاحَ السَّنـــا
حين يلقيـــه المَعرّي أو لبيـــد
أَم سباك النثـــرُ فى سَلْسَــلِه
يخلب اللبَّ ويُرْضِى المستزيد
يملأُ النفسَ ســروراً غامــراً
قد كســاه حِليــةً عبدُ الحميد
كل هــذا ماثلٌ فى منتــدًى
اسمُهُ بالفخــــر عالٍ ووطيد
الشحــاريرُ عــلى أَيْكاتـــه
طربتْ شوقاً فضجَّتْ بالنشيد
كل شحرور تغــنّى فانبــرَتْ
تلكم الأَفنــانُ نشــوى تستعيد
فكأَنَّ الطيــر تحيَى ليـــلةً
من ليالى الأُنْس فى قصر الرشيد

وأول ما نلحظه على هذه الأبيات أنها تتجه إلى الجمع بين الإيمان بالقديم وبعث الأمل فى الحاضر ، فهو يذكرنا فى الشعر بالمعري ولبيد ، وفى النثر بعبد الحميد الكاتب ، كما يذكرنا فى الفن والحضارة بعصر هارون الرشيد ، ثم يقول : أن ذلك الماضى المجيد أو بعضاً منه عاد من جديد ماثلا فى هذا النادي الأدبى الفتيي . ويهمنا أن نشير إلى خطإ شائع وقع فيه أبو معطى وهو إتيانه أم المعادلة بعد هل الاستفهام حيث قال :

هل شجاك الشعر محبوكَ القصيد
طافحاً بالفن من كل جـــــديد

ثم قال :

أم سبـــاك النثـــر فى سَلْســـله
يخلب اللب ويرضى المستـــزيد

والصحيح أن أم لا تـأتى إلا بعد الهمزة كقوله تعالى : « أأنتم أشدُّ خلقاً أم السماء ؟ » أمَّا هل فيمكن

أن تأتى بعدها أو ، ولكن الجمال التصويري فى فى الأبيات غطى على كل ملحوظة لغوية وسد فى وجهها المنافذ والأبواب ، كما سبق أن سدها الفرزدق فى وجه عبد الله بن إسحاق النحوي فى عصر بنى أمية .

ثم يتوجه أبومعطى لشباب عصره ليشد على يده وليهنئه بما حقق من نشاط أدبى وحيوية يملأها الأمل والطموح فيقول :

يا شبابَ العصر مرحى هذه
بشرياتُ النور والعيشِ السعيد

ذَا عكاظٌ رجعتْ أيامه
فسمعنا كل منطيق مُجيد

يرسل اللحن شجياً آسراً
يبعث الإحساس فى القلب البليد

ويبث الشوق فى أعماقنا
فترانا قد نهضنا كالأسود

ثم ينتقل إلى استنهاض بنى قومه ويدعوهم إلى عدم الاقتصار على التغنى بالماضى لأن ذلك ضرب من العجز ومدعاة للخمول لا يجلب نفعاً ولا يُغنى فتيلا ، فالأسلوب الصحيح للحياة الكريمة يتمثل فى الإقبال على طلب العلم واقتحام دروب الحياة بكل عزيمة وإصرار ، ومصارعة أهوالها فى ثقة وإيمان . يقول :

يا بنى قــومى أُحيِّيــكم ولا
أكتم النصح فما يُجْدي القعود

ليس يُجدينـــا التغنّى بالــذي
قد أضعنـــاه من المجد التليد

ليس يُجدينَا سوى ما نبتنى
من معالٍ راسيـــات ونَشِيـــد

فابتنُـــوا للعلم صــرحاً عاليــاً
رُكْنـــه بالخُلُقِ العـــالى مَشيد

ثم سيــروا قُــدُماً نحو العُلا
لن ينال المجدَ أَقــوامٌ رقـــود

لن ينـــال المجـدَ إلاَّ مُقْدِمٌ

يركب الهولَ بعزمٍ من حديد

لا يبالى نُوَبَ الدهـــر إذا

رام أن يُدْرِكَ مرماه البعيـــد

ثم يشير فى آخر القصيدة إلى أن العالم يعيش فى حيرة من أمره ، ويرزح فى قيود الظلم والجور الشديد . ويعانى من فقدانه الكرامة والعزة والخلق الحميد . ولا خَلاصَ لهذا العالم مما هو فيه إلا عن طريق الإسلام ، فهو المنقذ للبشرية من ضلالها ، والمحقق للعدل والحق بين بنيها . يقول أبو معطى :

هذه الأرض حيـــارى أهلُها

يشتكون الظلمَ والجور الشديد

ويعـانون بـــلاءًا محـــدِقاً

وأَدَ العـزَّة والخُلْـقَ الحميـد

فابعثـوا الإسـلام يُحْيِى أنفُساً

ظمئت للحق والعـدلِ الرشيـد

وأضيئـوا قبسـاً من نـــوره
تنْجـلى تلك الدياجى وتَبيـد

ولْتكونـوا حاملى راياتِـــــه
قدوةَ العالَمِ فى الرأْي السديد

وإيمان أبَو معطى بدور العلم فى حياة الفرد والجماعة ليس له حدود ، حتى لم تكد قصيدة من قصائده تخلو من تعريجه على العلم والتنويه بشأْنه ، وتوجيه الأَنظار إليه وإلى آثاره ونتائجه ، ولكن قصيدته (مناهل العلم) خصصها بالذات لهذا الموضوع ، وفيها يقول :

طاف بالروض شاعـرٌ يتـرنّمْ
يسكب اللحن من شعاع مجسَّمْ

كلمـا لامس القـلوبَ صداه
هـزّها هِزّةَ المَشُـوقِ المتيمْ

فإذا الروضُ موجـــةٌ من ضياء
وعبيـرٌ من الشـذى يتنسـمْ

وإذا الأُفْقُ أَيْكُهُ الوارفُ الظلٌّ ،

أَهازيجُ بلبلٍ جدٌّ مُلْهَم

فتخال الزهورَ نشوَى صبايا

أفصحتْ للربيع عما تكتَّم

وتظن الغصونَ تهمس سرًّا

والنسيمُ العليلُ عنها يُترجِم

وفى هذا المطلع صفاءٌ شعريّ ساندت فيه الصورة اللفظ ، فجاء واضحاً رائعاً مؤثراً ، فالألحان تلامس أصداؤها القلوب فتطربها وتهزها مثلما يهز صوت الحبيب فؤاد المحب المتيم ، وتنتشر فى الروض موجاتُ الضياءِ الحالم والعبير الفاغم ، وتنطلق حناجر البلابل بالأهازيج الرقيقة الملهمة ، وتتفتح الزهور فى وضوح وصفاءٍ وجمال عارم كصبايا تفضى للربيع – وهى فى عنفوان نشوتها وصبوتها بما كانت تكتمه عنى أعين الآخرين .

فتخـــال الزهــور نشْــوى صبايا
أَفصحــتْ للربيــع عما تـكتَّمْ

إنها بحق صورة جميلة أَصابت كثيراً من التوفيق تذكرك بقول البحتري :

يفتّقها برْدُ النـــــدى فكأَنها
تبثّ حــديثاً كان قبــلُ مكتّماً

ويقول صفى الدين الحلى :

والطَّلْع من خللِ الكِمام كأَنّه
حُلَلٌ تفتَّــق عن نحورِ غــوان

ولكنها فى نظري أَشد روعة وأَبعد منالا ، لانها قابلت بين التكتم والإِفصاح كما قابل البحتري بين البث والتكتم ، وزادت بما وفرته من جو النشوة والطرب والصبوة . هذا من ناحية البحتري ، أَما من ناحية الحلى فقد اقتصر الحلى على تصوير الزهر فى حالة ظهوره من الكِمّ : بظهور نحور الغوانى ، خلال حلل مفتقة الصدور بادية الجيوب ، وذلك بلا شك جزءٌ

من الصورة جميل . . ولكن أَجمل منه ما فعله شاعرنا أَبو معطى حين عمم وجعل الصبايا نشاوى لا تعرف معنى للتكتم . بل تفصح عن كل شىء وتفضى بكل شيء للربيع ، فيتدفق طبعها وتزدهى فتنتها وتنام على شفاهها ومضات الحسن والجمال .

ثم يكشف أَبو معطى عن الرياض التى يريد . . فهى رياض العلوم والعرفان وأكرم بها من رياض . فيقول :

يا رياضَ العلوم مرحى وبُشْري
فالصباح الجديد فيكِ تبسَّمْ

هل رأَيتِ الجموع تخطر أَفوا
جاً إلى ساحك الرحيب المكرّم

أَقبلتْ كالسيول تهتز أَشوا
قاً ، وتختال فى الجلال المفخم

لترى العلم كيف تزكو غراساً
وتطيب الثمار منه ـ وتَنْعم

يا لَعيْنيَّ هل أَرى اليــوم إلا
موكباً صاغه البهــاءُ فأَحْكم

كل شيخ فى قلبــه كلُّ شوق
وفتى ملهبُ المشـــاعرِ مضرمْ

وشباب هم زينة الوطن الغـــالى
وهم رمْــزه إذا ما تقـــــدم

ويبدو أَن هذه القصيدة قيلت فى مناسبة حفلة مدرسية فهو يتحدث عن الجموع التى أَتت إلى ساحات العلم أَفواجاً ، وأَقبلت تتزاحم على مناهله فى شوق واختيال ، لترى الغراس التى ستغدو بعد حين ثابتة الأُصول سامقة الفروع ، كما يقول :

مرحبــاً بالجمــوع منهم وأَهلاً
وثنــاءٌ يشــدو به كل مبْسمْ

وتحــايا أَريجُهــا يمــلأُ الأُفْقَ
وينســاب كالسنــاءِ المنغَّــم

وهنا نلحظه يستعمل كلمة سناءٍ التى هى بمعنى الشرف ، مكان كلمة سنى التى هى بمعنى الضياءِ ، وكان الأَولى أن يقول كالضياءِ – مثلا – فيستقيم له التعبير .

ثم يتوجه بحديثه إلى شباب الحمى ، فيحثه على تحصيل العلم ، فهو سلاح الحياة وبلسم الروح المتطلعة الظامئة ، وهو معقل الدين وملاذ الحق ومنقذ البشر من ظلمات التأَخر وحنادس الجهالات :

يا شباب الحمى : سِباقاً إلى العلم
فما فاز خائــرُ العــزم مُحجِم
إنما العلم فى الحيــاة ســلاح
وهو للروح بَلْســمٍ أَي بلسم
وهو للدين معقــل ومــلاذٌ
شامخٌ فى السماءِ بالحق مُعْلَمْ
مَن رأَى غيرَ واضحِ العلم نَهْجاً
فهو فى حندس الجهالة مُغْـرَم
وإذا ما الشبــاب شاءَ مــراما
(فالفِــرِنْدُ الأَصيــلُ لا يتثلَّم)

وإيمانه بالشباب لا يقل عن إيمانه بالعلم ، فهم عماد الأُمة وأَملها فى المستقبل ، وهم الفرند الذي لا يتثلم كما قال فى القصيدة السابقة ، وهم صباح الأُمة وأَغاريدها وآمالها وأَحلامها ، كما يذكر ذلك فى قصيدته التالية بعنوان (مصنع الشباب) ومطلعها :

أَيّ لحنٍ من أَغاريد المنى
طاف بالكون فغنّى مَوْهنا

فهفا كل فؤاد نحْوه
يتصبَّاه من النور السنى

ودعتْه النفسُ فى أَعماقها
روْضةً حفّت ثماراً وجَنى

* * *

حيِّ يا شعرُ شُعاعاً مُشرِقاً
يغمر الاقاق بِشْراً وهَنا

وأَشِدْ بالسحر ، لا تبخَلْ على
منبعِ النورِ بمسحور الغِنَا

غنِّها فى مهـــدها أغــرودةً

سكِرتْ منها الــروابى والدُّنــا

غنِّها فالنــورُ من ميــــلادها

قد أَشاع الفــرحةَ الكبري سَنى

وهو يؤكد على دور الشباب الطموح فى بناءِ صرح الأُمة وتحقيق آمالها فيقول :

يا شبــاباً رام إدراكَ العــلا

أنت - بوركتَ - سياجٌ حَوْلنا

منكَ ترجـــو أُمــةٌ طامحةٌ

فوق هام المجـد تُرْسى السُّفُنا

وعلى جهــــدك نبــنى نهضةً

تتــرك الجهــلَ صريعاً مُثْخَناً

وينعى أَبو معطى على بعض الشباب خورهم وضعفهم وخمولهم وتعلقهم بالغايات السطحية الزائلة فيقول :

أيّ فخــــر لشبــــاب خاملٍ
قانــع بالعيش ذُلاًّ وعنـــــا

خائرِ العزم يرى مِنْ جهــله
لذَّةَ العيــش فِراشاً لَيِّنـــا

وهو يركز كثيراً على القيم والأَخلاق ، فهى الركن القوي للحضارة الحقة فلا بد من التمسك بها والتأكيد عليها . يقول مخاطباً الشباب الناهض :

فادَّرِعْ بالصبــر وارسمْ خطــةً
يبهـــرُ الدنيا صــداها أَزْمُنَا

وعلى الأَخــلاق أَسِّسْ ركنَها
ولْيكنْ سيــرُك سيــراً حسَنــا

والفكرة الجديدة التى تناولها الشاعر فى هذه القصيدة هى فكرة الوحدة بين الشعوب الإسلامية ، تلك الوحدة الراسخة رغم عوادي الزمن ومحاولات المستعمر ، وذلك فى الخاتمة وبدون تمهيد ، مما يجعلنى أَميل إلى أَن بعض الأَبيات حذفها الشاعر عند نشر القصيدة لأَمر من الأُمور . يقول :

إخوةٌ نحن شعورٌ واحدٌ
وإخاءٌ صادقٌ ما بيننا

لا يغرنّك أنّا أممٌ
إنّنا في الخطب قلبٌ إنّنا :

أمةٌ واحدةٌ في رأيها
رغم أنفِ الخَطْب نَبني مجدنا

والذي نريد أن نقوله قبل أن نغادر هذا الاتجاه عند أبي معطى : هو أنه اتجاه وثيق الصلة بحياته العملية ، فقد تقلب في وظائف تعليمية عديدة في وزارة المعارف ، واشترك في الإشراف والتخطيط ، فليس بغريب إذن أن نراه يتحدث عن العلم والشباب والأخلاق .

ولأبي معطى أيضاً ولع بالطبيعة ومظاهر الجمال فيها ، فقد أفردها ببعض قصائده ، ومن ذلك قصيدة (الربيع) التي قدم لها بقوله :

في الربيع يصحو الجو وتشرق الشمس وتحلو

الحياة ، وفى الربيع تنطلق النفس وتهيم فى أودية الحسن والجمال ، وتتأثر بما تراه ، فتشدو مع البلابل . يقول فيها :

الآن يا روضُ يحلو الشدْوُ والسّمرُ
فلْتهنأ النفسُ وليسْعدْ بك البصرُ

ولتسترق منك أنفاسُ الصَّبا أرجاً
يطوف بالمُقَلِ الوسْنَى فتنبهـــر

لله روضٌ تغـنَّى طيرُه طرَبًّــا
كأنما أُنزِلتْ فى ساحِــه سُوَر

فهبَّ بلبلُه الصّداح منطلقــاً
يشدو فيسهِبُ أحيــاناً ويَختْصر

وللجداول أنغــامٌ مرفــرِفةٌ
طُهْر من الفنّ لم يعلَقْ بـه وطَــر

أما نســائمه الحيْــرَى فوسوسةٌ
بين الزهور أذاعت سرّها الشَّجــر

وبالتأمل فى هذا النص نجده لم يزد عن كونه وصفا خارجياً للروض ، ولما يمكن أن يكون فيه من أرج عابق وبلبل صادح وجدول رقراق ونسيم عليل ، وذلك فى إمكان أي كاتب أو شاعر أن يتحدث عنه دون أن يتجاوز عتبة بيته ، فليس فى أبيات القصيدة ما يدل على انفعال صادق أو تجربة حقيقية عاشها الشاعر ، ولم تكن الألفاظ وتعمد رص الصور المفتعلة بقادرة فى يوم من الأيام على أن تصنع شعراً نابضاً بالحياة ، وإنما هو النظم ولا شىء غيره ، هذا علاوة على ما فى القصيدة من روح تقليدية ظاهرة .

ومن روائع أبى معطى قصيدة تفيض بالأحاسيس الرقيقة وترف الحياة خلال كلماتها رفيفاً موحياً بكل ما فى طواياه من آمال وآلام ، وهى بعنوان (حياتى) قدم لها بقوله . . « أهديها إلى الذين يسهرون حينما ينام الخليون، ويسامرون نجوم الليل حتى الصباح .. أهديها اليهم مشاركة فى الحزن واجتماعاً فى الأسى .. » ويبدؤها بقوله :

كلما فاضت الهمومُ بكأْسى
أتأَسّى وليس يجدي التأَسى

أرتمى يائساً تحطمَ من شكواه
يجترُّ ذكرياتِ الأَمس

نادباً حظّه الشقى ويكفى
ما يلاقيه من خطوبٍ خُرْس

أنا فى عالمٍ غريبٍ من الوحدة
فيه من كل سوءٍ ونحس

حيرةٌ تبعثُ المرارةَ فى القلب
وتُدنيه من جمود ويأْس

كلما أَقلعتْ مواكبُ منها
إذْ بأُخرى أَشد منها تُرْسى

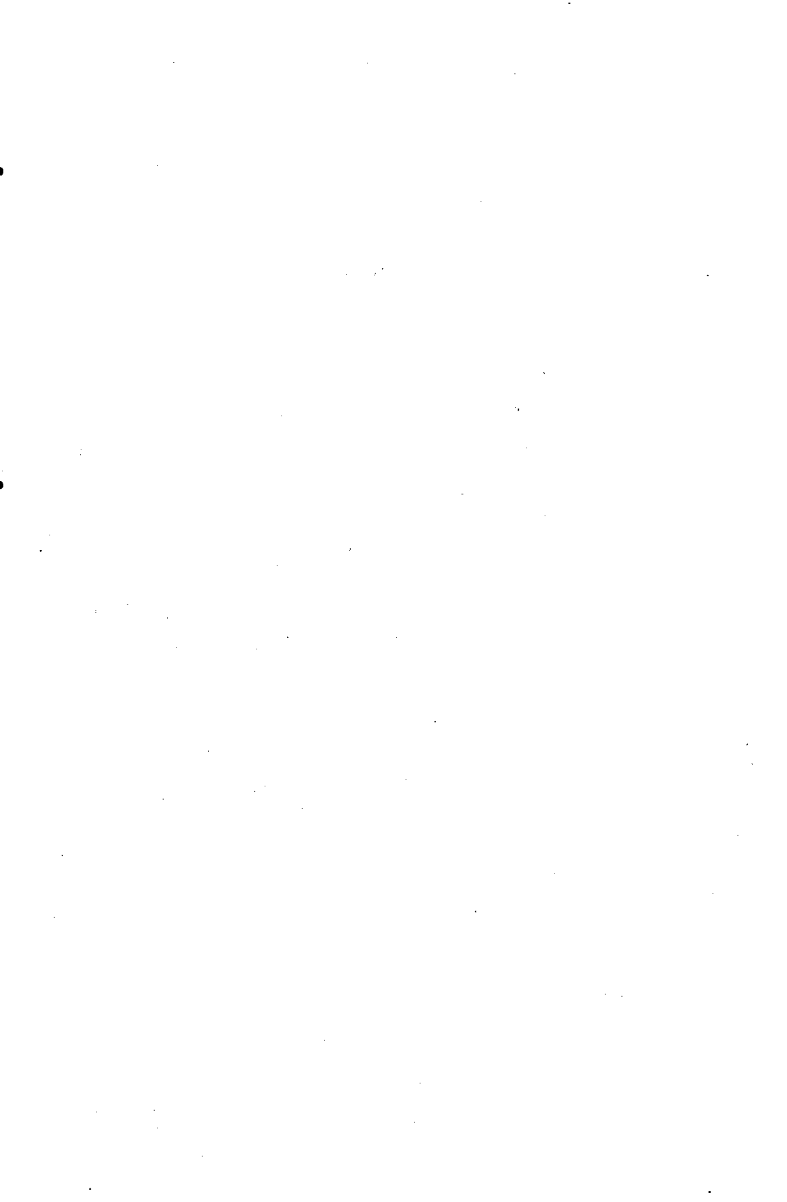
وأَظن الخيالَ يفرشُ دربى
بندَيٍّ الزهورِ من كل جنس

فأُقيم الخمائلَ الفُنَّ أُرويها
بفيضٍ مما يجول بنفسى

وهكذا يمضى الشاعر ناثراً آلامه باكياً أشجانه ، تصهر اللوعة قلبه وتُدمى مآقيه ، لا يجديه التأسى ولا ينفعه الصبر ، ولا يخفف أثقال نفسه أحلام اليقظة ودنيا الخيال . ثم يتوجه فى آخرها بالدعاء إلى الله فيقول :

ربٍّ هب لى من السعادة ما
يغسل قلبى من كل غىٍّ ورجس
ويُشيع اليقينَ والأملَ الباسمَ
والخيرَ فى حنايا النفس
لأغنِّى الوجودَ أعذبَ لحن
رنَّ فى سمعه بأرخمِ جَرْس

هذا هو أبو معطى ، شاعر بدأ حياته بالآهات والشكوى وتمنى السعادة من كل قلبه ، فلما دخل معترك الحياة وامتلك بين يديه ثمار جنيه يانعة طلق الشعر إلى الأبد وانغمس فى نعيم الحياة .



محمد سليمان الشبل

في سنة ١٣٤٨ هـ استقبلت مدينة عنيزة أحد شعرائها الذين لا تزال تباهى بهم وتفاخر ، وهو شاعرنا محمد سليمان الشبل ، وقد أشرت فى مناسبات سابقة إلى أن عنيزة قدمت لدنيا الأدب كثيراً من الشعراء ، وهو بلا شك شيء ملفت للنظر مسترع للانتباه ، ولا بد هنا من طرح بعض الأسئلة التى تبدو ملحة فى هذا المجال : هل ظهور هذه النخبة من الشعراء فى مدينة عنيزة راجع لسبقها إلى الإنفتاح النسبى إذا قورنت بمثيلاتها ، أو هو عائد إلى ارتفاع نسبة المتعلمين الأوائل فيها ؟ أو هو راجع إلى موهبة معينة فى أبنائها ؟ أو أن مشاهدها الطبيعية أكثر فتنة وإغراءا ..؟ أو أنه أتيح لشعرائها فرصة الظهور والشهرة أكثر مما أتيح لغيرهم ؟ أو أن هناك أسباباً أخرى تحتاج إلى مزيد من التحديد .؟ فى الواقع نحن لا نستطيع أن نجزم بشيء من ذلك الآن ، بل يكفينا

الإلماح إليه ولو من بعيد ، تاركين فرصة تحقيقه لظروف الدراسة المتخصصة التى لا يمكنها مغادرة مثل هذه الظاهرة دون تحديد وتمحيص ، وإذا كان شاعرنا الشبل قد أتم دراسته الابتدائية فى مدينة عنيزة ، فإنه قد أتم بقية مراحل تعليمه بمكة المكرمة ، كما أن بها كانت حياته الوظيفية ، وهو الآن يشغل فيها منصب مدير للثانوية العزيزية ، وقد ذكر الأستاذ عبد الله بن إدريس أن محمد سليمان الشبل كان مغرماً منذ صغره بمطالعة الكتب الأدبية ، شعراً ونثراً ، والقديم منها بصفة خاصة ثم أخذ يتجه نحو الجديد المعاصر ، وعلى وجه التحديد صوب الأدب المهجري ومدرسة جبران منه بالذات ، وقال عنه فى موضع آخر : أنه من الهائمين فى صحراء الرومانسية ، والمغذّين فى ركبها المنطلق ِلى المجهول . . والذي لمسته فى هذه الترجمة أنها من كتابة الشاعر نفسه ، وليست هى نتيجة استقصاءات أو دراسات قام بها الكاتب ، ومما يؤيد هذا قوله فى مكان آخر :

للشاعر من الآثار الشعرية ديوان (نداءُ السَّحَر) الذي سيخرج إلى حيز الوجود فى القريب العاجل حسبما ذكر الشاعر . وأين ذكر الشاعر ذلك ؟ بالطبع ذكره فى ترجمته عن نفسه التى كتبها تلبية لالتماس الكاتب حينما كان يقوم بجمع مادة كتابه (شعراءُ نجد المعاصرون) ، ومن قصائد شاعرنا التى بين أيدينا قصيدته (إقبال وإدبار) والتى يقول فيها :

رحلَ النهار عن الوجود بضوئه وأتى الظلامْ
فكسا بظلمته المفاوزَ والمتالع والرِّجامْ
لا صوتَ فى هذا السكون ولا حديثَ ولا كلام
كلٌّ يحن إلى الهجوع ويشتهى حلو المنام

* * *

سكنوا لرهبته فلا همسٌ يدور ولا حوار
سكتت أهازيجُ الطيور فلا هديل ولا شجار
لا راعياً يشدو ولا بومٌ يصيح ولا هزار
كل أصاخَ إلى الهجود فليت شعري ما القرار ؟

وقبل أَن نواصل رحلتنا فى هذه القصيدة نحب أَن نشير إلى وجود الشبه بينها وبين قصيدة للأَخطل الصغير عنوانها (قلب خافق) ومطلعها :

أَنا ساهر والكون نام وكل ما فى الكون نامْ
نام الجميعُ ومقلتِى يقظى تجول مع الظلام
حتى نجومُ الأُفق نامتْ فوق طيّاتِ الغمام

ويلتقى شاعرنا فيها معه فى تصوير الصمت والسكون وانقطاع الحركة فى الليل ، يقول الأَخطل :

السهل نام فلا حراك ولا هتاف ولا بُغَام
أَنا ساهر والبحر أَخرسُ لا هدير ولا احتدام

ويقول :

لا حسَّ حتى خلتُ أَنْ سادَ الحِمامُ على الأَنام
وحسبتُ أَنفاسَ الورى سُجِنَتْ بأَقفاصِ العظام
صمتٌ يقزُّك فيه خَبُّ النمل فى مُلْسِ الرُّخام

وقد رأينا تصوير الصمت عند شاعرنا الشبل فى الأبيات التى أوردناها قبل قليل ، وقد بان لنا قصد الأخطل الصغير من حرصه على تصوير ذلك الصمت تصويراً دقيقاً لا احتمال فيه ، حيث كان يريدنا أن نسمع معه خفقان قلبه العاشق المستهام :

ما كان يخفق غير قلب كاد يُتلفه السَّقام
ما أعظم الضوضاءُ يُحدثها فؤادُ المستهام . !

ولكننا لم نصل مع شاعرنا الشبل إلا لمعنى الإقبال والإدبار وتعاقب الهيآت والأحوال ، والفرق بين ساعات التجلى والإنشداه ولحظات السعادة والشقاءِ ، وهى معان رمز لها بوضوح فى المقاطع الأخيرة من القصيدة ، ولم تكن فى نظري بحاجة إلى كل هذه الإيحاءات المتعمدة بشدة الصمت وتعميقه فى النفس على الصورة التى رأيناها ، والتى تبثّ فى نفس القاريءِ التطلع والتوقُّع والانتظار ، يقول الشبل :

هذى البسيطةُ يا لها قد جُلِّلتْ بُرْدَ السواد
وذُرَى الأَباطح ما لها قد أُلبِسَتْ ثوبَ الحداد
حزنت على النور البهىِّ أَمِ استكانَتْ للسهاد
هول الظلام يجيبُ أَنْ : لا تُكثرنّ من التنادْ

* * *

هذي جيوشُ الليلِ يا ابن البِيدِ تزحف فى اضطراب
نحو الخِضمِّ المُزْبدِ المتلاطمِ النائى الرِّحاب
لتزيد ظلمتَهُ المخيفةَ فاعتصِمْ بحمى الْيَباب
لا تدْنُ من هول البحار ولا تَطُفْ حولَ العباب

* * *

هيهاتَ كم بين النهارِ وبين حالكةِ اللياْل
هذا به نورُ الحياه تُفيضه شمسُ الجلالْ
وذي بها شتَّى المخاوفِ بُعثِرَتْ فى كل حال
فاهنأْ بضوءِ الصبح ، إن الصبحَ مرآةُ الجمال

فقراءات شاعرنا الشبل إذن لم تكن قاصرة على الأَدب المهجري ، بل كانت تشمل الشعر الجديد

فى البلاد العربية أيضاً ، أما الناحية الرومانسية فهى ظاهرة بالفعل فى كثير من أشعاره ، بل إنها تتجلى حتى فى عناوين قصائده مثل البلبل الأخرس – القيثار المحطم – نداءُ الربيع – الزهرة العذراءُ ، إلى غير ذلك من العناوين الشفافة التى تحمل معانى الأسى والألم ، وتدعو إلى الاستمتاع بالطبيعة والانغماس فى دنيا الأحلام الوثيرة الناعمة ، ففى قصيدته (البلبل الأخرس) يقول :

يتلوّي والأغانى بين جنبيْـــه تذوبُ
والأمانى فى مآقيــه دموعٌ ولهيب
يتلوّيّ والهوى فى قلبه الدامى نحيبُ
والنشيدُ الحــلو آلامٌ ويأْس ووجيب

إن كل بيت يرسم صورة للألم الصاخب والأسى المِرنان ، فالأغانى تذوب والأمانى لا تتحقق ، فتتساقط دموعاً لا هبة من مآقى البلبل الحزين ، وحبه يتحول إلى بكاءٍ وعويل ، واليأْس يطحنه ويكوي

فؤاده ، ولا يقنع شاعرنا الفنان بتقديم هذه المعانى في الصورة الرشيقة التى قدمها بها فى الأبيات السابقة ، فيعود إلى إلباسها ثياباً أخري فيها من الأولى بعض الشّيات ، مع إضافة بعض الخطوط والألوان :

يتلوّي والأغانى بين جنبيه تنوحُ
نغَمٌ فى قلبه الخفّاقِ يغدو . . ويروح
كلّما فيه من الشدو دموع وجـروح
وعويلٌ من أسى الماضى به اللحن فحيح

* * *

يتلوّي بين أزهار الربيـع الناضـر
شاردَ النظرة يشـدو بأنينٍ حائـر
خفق اليأسُ أغانيه بصمتٍ قاهـر
وطوي البؤسُ أمانيـه بيأسٍ سـاخر

إنها مأساة الفن والطموح يرسمها شاعرنا الشبل ، ويغنيها بحرقة ونشيج مولّه ، هى قصة أزلية خالدة ، يمثل شخوصها الفنانون والعباقرة ليستطيعوا أن يفيضوا

على الكون من إبداعهم ، ويمنحوا الفن والفكر أسباب الروعة ومناط الخلود ، ولا يود شاعرنا الشبل أن ينهى حديثه عن هذا البلبل دون أن يعرض مشاهد متنوعة لعجزه تدعو للرثاء ، وتبعث على المشاركة الوجدانية فى المصاب ، فهو عاجز عن الاستمتاع بما فى الوادي من زهر ناضر وورد غض ، وعاجز عن مشاركة البلابل الأخرى الصادحة التى تنتقل من غصن إلى غصن فى نشوة وحبور ، وما أبشع العجز وما أدعاه للرثاء وما أشده على القلب الحساس والوجدان الرقيق ..!

أزهـر الوادي فماذا شاقه من زهـرِهِ

وهو نضـوٌ يتلوّي لحنُهُ فى صـدره

وهو نضو يتهـاوي قلبه فى قبـره

غالَه اليأْسُ فناحت روحه فى نحره

* * *

يلمحُ الموج وما فيه من الزهر النضير

من وُرودٍ غضّةِ الأَوراقِ عـذراء العبير

نسج الطلُّ حواليها من المـاء النَّمـيرِ
بُردةً توقظُها الأَنسامُ باللحن المثيـر

* * *

يلمح الأَطيار فى الدوحة من غصنٍ لغصن
تسكب النغمةَ أَصداءًا وتشدو وتُغنِّى

وتذيب الخفقةَ الحرّاءَ فى الروض الأَغَنّ
فيري الدنيا جحيماً ، كلُّ ما فيها تَجِنّ

ومن العجيب أن المقطع الأَخير فى هذه القصيدة كان أَقل مستوي من الناحية الفنية من مستوى بقية المقاطع ، مع أَن بعض الشعراءِ قديماً وحديثاً يحرصون على المطالع والمخاتم ، فالبيت الثانى مثلا – من هذا المقطع لم يزد عن رص مجموعة أَلفاظ تكاد تؤدي معنى واحد وهو الغناءُ ، وهو ما يسميه البلاغيون تطويلا :

تسكب النغمةَ أَصداءًا وتشدو تغنّى

ومع ذلك فإننا لكى نكون منصفين ، لا بد أَن نقول : إنها قصيدة وفق فيها الشاعر إلى أَبعد الحدود ،

وحشد فيها كثيراً من الإمكانات الفنية الناجحة .

وفى (قصيدة نداءُ الربيع) نجده قدم لها بقوله :

(كم للربيع من نداء عميق ينساب فى قلب الشجى والخلى أصداءًا شاعرية طرية ما أعذبها وأحلاها . !)

ثم يبدؤها فيقول :

نسمة الفردوس عودي أنعشى روح الوجودِ

وامسحى هام الروابى بشذا عطر الــورود

واعزِفى الأيامَ لحنــاً من ترانيم الخلود

إن هــذا الكــون لولا نسمةُ الفردوس ولّى

وغدا لليأس ظلا

فارقصى فوق الروابى بسنا النــور المُذاب

وابعثى الفرحة فى الكون بأحــلام الشبــاب

وتهادَيْ ، فالربيعُ الطَّلْقُ قد غنّى بأنغام عِذاب

وسرَي طيفاً وديعــاً مرحاً غضّــا بديعاً

يغمرُ الكون جميعاً

إن الغرض من نسمة الفردوس التى يناديها الشاعر هنا يحتمل أكثر من معنى ، فهى قد تكون نسمة حقيقية يكمل هبوبها العليل منظر الربيع الجميل الذي انطلق يغنى بأنغام عذاب وسري كالطيف الوديع يملأ الكون مرحاً وسحراً . وقد تكون شيئاً آخر فى نفس الشاعر رمز إليه بهذه النسمة واختار له الربيع مثالا ، وبذلك تدخل القصيدة فى إطار الشعر الرمزي .

وفى النص التالى نجد الشبل شاعراً فخم الألفاظ قويّ الإيقاع ، لا يختلف كثيراً عن شعراءِ الدولة العباسية ، وليس فى شعره تلك الرقة التى لحظناها فى النصوص السابقة ، يقول بعنوان (وداع) :

صبرتُ عنكَ وما لى عنك مصطبَرٌ

لولا بقايا مُنًى طافت بها الذِّكرُ

غنّت فهومَّ روحى فى مناهلهـــا

وأرّقَ القلبَ من أطلالها أشَــر

يا من ترفّ له الذِّكري بلَوْعتها
ويسلبُ القلبَ من أعلامه صُور

هلاّ ذكرتَ زماناً بالمُنَى رقصت
أيامه ، وتغنّى الورْدُ والزَّهَـــر

لم يبق فيه سوى ذكري مؤرقةٍ
وأدمُعٍ من حطام القلب تُعتَصَـر

فهو لا يصطبر ، والذِّكر تغنى فيهوم الروح فوقها ، وهو رجل تؤرقه الأطلال وآثار المحبوب ، كما كانت ذكراها تبكى شاعر الجاهلية ومنظرها يشجيه ويبعث كوامن الذكري فى نفسه ، ومنها قوله :

يوم الوداع وهل أبقيتَ فى خَلَدي
إلا الأسى فى حنايا القلبِ يستعِر

سلبتَ من مهجتى ظلاً نلوذ بـــه
فى راحق بهجيرِ الشوق ينهمـــر

وهمت فى خافقى المكلومِ تلدغُه
بالشوق كالنار لا تُبقى ولا تذَرُ

ولكن الشبل فى عامة أشعاره شاعر مجدد شكلا ومضموناً ، مرتبط بقراءاته فى دواوين القدماءِ والمحدثين ، وقد لاحظنا ذلك بوضوح فيما أوردناه . وفى قصيدته (القيثار المحطّم) يقول :

يا حبيبى هــذه اللوعةُ فى قلبى المعنَّى
سَكبَتْ من ذَوْب أعماقى حديثَ الشوق لَحْناً
وأحالت فى فؤادي ذلك الروضَ الأغنـا
واحةً جرداءَ ، لم تسعَدْ به الأنغامُ أذنـا

* * *

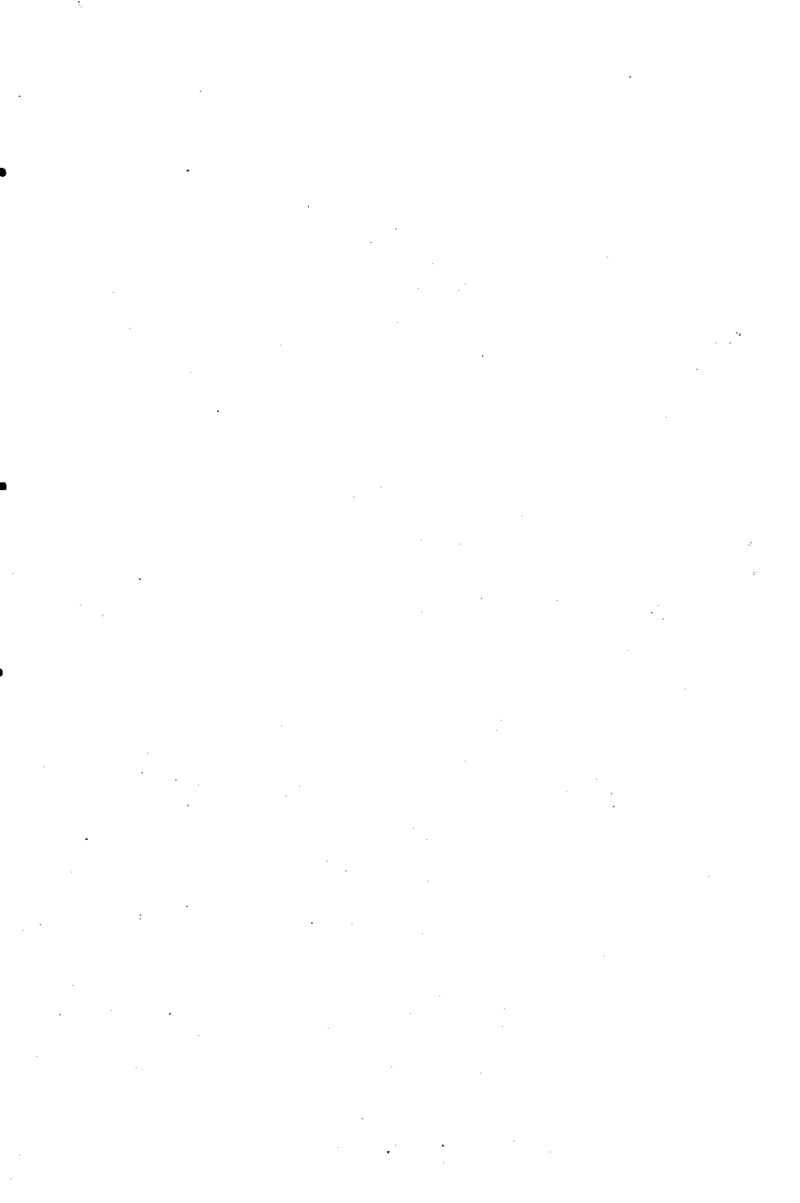
لم يعد قلبى كما كان هَـزاراً يتغـنّى
مرِحاً يخفق بالفتنة والأشـواقِ حُسنـاً
إن شَدا فالنغـمُ المشبـوب دنيا تتثـنّى
أو هفا لم يُغمِض الماضى على ذكـراه جَفْنـا

* * *

هذه أُغنيةُ الماضى هـوتْ من شفتيّـا
آهـةً سوداء لم تَحْمِلْ من الفتنة شيّا

غضّةَ الإيقاع تطويها يدُ الحسرة طيّــا
مسختْها شــدةُ الحــرمان مسخاً أبديّــا

إن هذا المقطع الأخير من أثري لوحات شاعرنا الشبل فى هذا النص ، فصورة الأغنية المتهاوية من الشمتين فى لون الآهة السوداء الخالية من كل فتنة ، تذهب برقة إيقاعاتها ضراوة الألم والحسرة وتطوي جمالها ، ويمسخ الحرمان أنغامها إلى الأبد . . إنها بحق لوحة فنان ، وكلمات شاعر تبهر النفس وتمتلك المشاعر . ورغم توفيقات شاعرنا محمد سليمان الشبل من الناحية التصويرية فى شعره فإنه يقع أحياناً فى بعض المخالفات اللغوية التى تضيع معالمها فى أناقة اللفظ وجمال التصوير ، ولا ننسى ونحن نختتم هذه الكلمة أن نذكر أن شاعرنا الشبل مثل المملكة فى كثير من المؤتمرات الأدبية بالبلاد العربية مثل مؤتمر الأدباءِ بالعراق والجزائر وغيرهما . تقديراً لجهوده واعترافاً بفنه الأدبى الأصيل .



لقـــاء
مع ديـوان غنـــاء الجـرح
للشاعر : محمّد العيد الخطــراوى
بقلم الأديب الشاعر الأستاذ عبد الحميد ربيع

قبل أن نلتقى مع الديوان بالتحليل والتقويم يطيب لنا أن نلتقى مع الأسئلة التالية ، لنري فى الإجابة عنها ما يمهد لنا الطريق فى رحلتنا مع ديوان « غناءُ الجرح » للشاعر المعروف الأستاذ محمد العيد الخطراوي ، وهذه الأسئلة هى :

أولا : هل نستطيع أن نقوِّم عملا أدبياً من غير أن نتعرض لظروف الأديب النفسية والبيئية والثقافية.؟

ثانياً : ما الذي ننظر إليه عند تقويم العمل الأدبى ؟ أهو الصورة التعبيرية .؟ أم أثر التجربة النفسية فى هذه الصورة .؟ أم هوالمضمون الأدبى ، من حيث القيم الإيمانية والإنسانية وغيرها .؟ أم هو الشكل الأدائى الذي يتخذه الأديب قالباً يصب فيه تجاربه .؟

ثالثاً : يتحدث الأُدباءُ عن العمل الأَدبى الذي يفرض وجوده وخلوده ، ويتعانق مع الأَزمان فى رحلته إلى الآذان والوجدان . فما ذلك الأَدب .؟ وهل له وجود فى هذا الديوان الذي نحن بصدد مناقشته ؟

وللإجابة عن السؤال الأَول أَقول : إنه لا بد فى تقويمنا للعمل الأَدبى ، من أَن نتعرض لظروف الأَديب النفسية ومايتصل بها من نشاط أَو خمول ، وما يتبع ذلك من حدة الذكاءِ أَو فتوره ، وما يقف به أَمام الأَحداث من شدة الانفعال أَو هدوئه . كما أَننا لا يمكن أَن نغفل البيئة التى يعيش فيها الأَديب : من اعتدال المناخ أَو تقلبه ، ومن مشاهداته للطبيعة ، وما فيها من خصب ونماء ، وما يتأَلق على أَرضها من أَنهار وأَشجار وأَزهار ، وما تتعانق معه من شواطىءِ البحار وعوامل الازدهار ، وما يحوطه من جفاف الحياة ، وما يقابله من رمال وجبال ، وما يعايشه من نبات صحراوي كالشيح والقيصوم ، وما يتحرك معه من

طيور وحيوان ، وما يزخر به الجو من ضباب وسحاب وأمطار ، وما ينبت فى البراري من عرار وخزامى وريحان . كل هذه المظاهر والمناظر لها أثرها فى الأديب وفيما ينتجه من العذوبة والرقة والقسوة والخشونة ، فإن هذه البيئة تلون ما ينسجه ويدبّجه .

أما الثقافة التى تصب روافدها فى ذهنه ووجدانه فلها أكبر الأثر فى براعة تعبيره وتصويره ، وما يتألق فى أعماله من جدة وابتكار ، أو تخلف وتوقف .

وصاحب هذا الديوان تتحرك فى شعره أحواله النفسية : من حدة الانفعال وشدته ، ومن شعوره بالغربة النفسية فيما يتناوله من أفكار ووجدانات . فهو يبحر وحده فى سفينة الحياة ، ويمضى غريباً فى فى رحلة العمل والأمل ، يحس بمصادرة إحساسه وأنفاسه ، بل باحتباس وجده ونبضه ، حتى ليضيق صداره بما فى صدره من هموم وأشجان ، وحتى ليشعر فمه بقسوة القيود التى تخنق ابتسامه وأنغامه .

أَما جوانبه الثقافية فهى وافرة زاخرة ، فدراسته أَدبية متخصصة ، وقراءاته ولقاءاته فى أَجواءِ شاعرة . مزهرة ، وعمله فى الحقل التعليمى غنى بالإدارة والإنارة ، فهو مدير لمدرسة ثانوية يلتقى بالعلموالشباب ، ويعيش معهما فى أَضواء فنية قوية تحرك اللسان والبيان والإيمان ، وهو يعبر عن ذلك كله فى شعر كثير غزير ـ كما سنتحدث عن ذلك فى تحليلنا لبعض قصائده .

وللإجابة عن السؤال الثانى عند نظرنا إلى تقويم أَعمال الأَديب ، فإنه لا بد من النظر إلى اكتمال الأَداءِ الأَدبى من حيث وفاؤه وبراعته فى التصوير والتعبير عن تجربة أَدبية معاشة يتحرك فيها النبض المنفعل بحركة نامية بانية ، حتى يكتمل العمل الأَدبى : قصيدة أَو قصة أَو تمثيلية ، أَما المضمون فليس داخلا فى نجاح الأَداءِ الفنى ، فقد يكون المضمون عظيماً كريماً والأَداءُ تافهاً هزيلا يغض من

جلاله واكتماله . وقد يكون المضمون تافهاً ضئيلا ، ولكن الانفعال به والتعبير عنه يتم فى أداءٍ قويم سليم . وهذان النوعان لا يخدمان التعبير عن الحياة ، ولا يحركان ما نستمتع به ، أو ننفعل معه ، ولكن الذي نرضاه عملا أدبياً مكتملا هو الذي يتعانق فيه نبل المضمون مع براعة التعبير .

أما القالب الذي يصب فيه الأديب تجاربه ، سواءٌ أخذه من التقليد أم التجديد ، فإن الذي يطلب إليه هو إجادة الأداءِ بما يوصل انفعاله إلى المتلقى ، فإذا اختار له الإطار الذي تستريح له العين والأذن ، فإن ذلك يكون أفضل وأكمل وأجلّ .

وشاعرنا الخطراوي له فى ذلك جولة وصولة ، فقد استطاع أن يقدم كثيراً من التجارب الأدبية الناجحة ، من صدق العاطفة واكتمال الأداءِ مضموناً وشكلا ، وإن كان هناك بعض التعبير يظهر فيه البعد عن نضج التجربة أو الاختيار المناسب للشكل الأدائى . وقد تناولنا هذا فى تحليلنا لبعض القصائد .

أما الأَدب الابتكاري التجديدي الخالد ـ وذلك فى إجابتنا عن السؤال الثالث ـ الذي يتحدث عنه الأُدباءُ والنقاد : فإنه ليس الأَدب الانسيابى ، الذي يتحدث عن العاطفة ، بعيداً عن إعطاءِ فكرة يحس معها المتلقى بأَن الأَديب يحترمه ، ويقدم له نفسه داخل إحساسٍ ليشتركا معاً انفعالا واكتمالا ، فليس أَدباً خالداً هذا البيت :

الليلِ بين نجـومه وغيومـه
قمر يضيءُ مع الدجى بقدومه

وكذلك الأَدب الذي يتحدث عن فكرة جافة ، ليس فيها أَثر لعاطفة أَو انفعال ، وإنما يسرد الأَفكار سرداً ، كالشعر التعليمى ، أَو الشعر الذي ينظم بعض الحكم فى أَبيات متلاحقة ، فذلك لا يسمى أَدباً خالداً . وذلك مثل قول أَبى العتاهية :

من لم يكن فى بيتـه طعـام
فمـا له فى بيتـه مقـام

ومثل قول ابن الوردي :

اهجُـرِ الخمـرة إن كنت فتى
كيف يسعى في جنون مَنْ عقَلْ .؟
دارِ جارَ السوء بالصبر فإن
لم تجد صبراً فما أحلى النُّقل .!

فهذه الأبيات وإن كان معناها شريفاً عظيماً فإنها تخلو من العاطفة ، ولهذا تعتبر نظماً لا شعراً .

وإنما الأدب الخالد هو الذي تمر فيه الفكرة من خلال العاطفة ، فإن مثل هذا الشعر لا بد أن يعيش موصلا للانفعال ، محققاً للإبداع والامتاع ، متعانقاً مع الزمن بالإشراق والتجديد ، وذلك مثل قول المتبي يعاتب سيف الدولة :

أعيذها نظرات منك صـادقة
أن تحسب الشحم فيمن شحمه وَرَمُ
وما انتفـاعُ أخي الدنيا بنـاظرِه
إذا استوت عنده الأنوار والظُّلم

فإن فكرة النظرات الصادقة حينما امتزجت بالعاطفة التى تناجيها وتستعيذ بها أن تنحرف أو تختل ، قد جاءت بعدها الحكمة فى البيت الثانى لتقول : إن النظر لا قيمة له إذا لم يفرق بين النور والظلمة . وفى هذا ما يجعل الأدب ممتزجاً بالآذان والوجدان فى رحلة الخلود . . وأن بعض قصائد شاعرنا الخطراوي فى هذا الديوان تطل بفنها الرائع ليضع وجداننا على على كثير من الشعر الذي يلتقى مع القراءِ فى إحساس يتجدد ، وعطاءٍ مشرق متدفق .

وقد وضع الشاعر الكاتب الناقد « عباس محمود العقاد » مقاييس للشعر ، وجعلها ثلاثة مقاييس حين يقول : « إن الشعر يقاس بمقاييس ثلاثة » :

أولها : أن الشعر قيمة إنسانية قبل أن يكون قيمة لفظية أو صناعية ، فيحتفظ الشعر بقيمته الكبرى إذا ترجم إلى جميع اللغات .

وثانيهما : أن الشعر تعبير عن نفس صاحبه ،

فالشاعر الذي لا يعبر عن نفسه صانع ، وليس ذا شخصية أدبية .

وثالثها : أن القصيدة بنية حية ، وليست أجزاء متناثرة يجمعها الوزن والقافية » .

وقد حكم العقاد مقاييسه الثلاثة فى شاعرية حافظ وشوقى ، فنفى عن شوقى الشاعرية ، ورأى أن حافظاً أشعر ولكن شوقياً أقدر .

وقد رأيت أن استصحب معى العقاد فى رحلتى مع ديوان « غناءُ الجرح » لشاعرنا الأستاذ محمد العيد الخطراوي ، وفى ضوء هذه الحقائق النقدية نتناوله ، ونتخذ منها إشارات ضوئية فى مراحل هذا اللقاءِ الممتع المشوق .

فديوان « غناءُ الجرح » مع قصائده الست والعشرين يعتبر قصيدة واحدة متعددة الأنغام والألوان والظلال ، تسير فى نبض متلاحق متسابق مع الانفعالات والأحاسيس حيث تنزف كلها من هذا الجرح ، مبتدئة بهذا النغم

الداعى إلى الله ، مع الإصرار على مزيد من الجراح والكفاح حيث يقول :

ربّاه تعصـرنا الشجون كآهة بين الشفـاه
وتلوكنا الأحـداث حاقدة كأفئـدة الطغاه
لكننا فى عزمنـا لا نستكيـن إلى الغـزاه
رغم المخاطر سوف لا نحنى الظهور ولا الجباه
سنقاوم الذلّ المريـع بعـزمة القـوم الأُباه
إن غالنا الغـدر العتىّ فسوف نقهـره الغَداه
حتى رمالُ بلادنا ستثـور فى وجه العُـداه
ولسوف ترجع قدْسُنـا ، فالقدس مقبرة الغـزاه

وتستمر مواقف القصيدة مع « قافلة الصباح » حيث تتحرك السفينة فى ليل كئيب رهيب ، وتشق الأمواج الغاضبة المدمرة ، حتى لتكاد تجرّعها الموت . ولكن الشاعر يلتفت إلى نجمة ترسل شعاعها ، لتقتات منه العيون ، وكأنه شعاع الأمل بين ظلام الأحداث والخطوب ، فيناجى الشعاع قائلا :

أَشعاع نجمتنا الذي تقتات منه عيونُنا
وتعيش تحت سنائه آمالُنـــا ونفوسُنا
وتلفُّنـــا بحنـــانه أَحضـــانه وتحيطُنا
لا تبتعد عن دربنـــا إن الظلام يميتُنـــا

والصورة رائعة فى هذا المقطع ، توحى بالرجاء بين عوادي الفناء ، ولكن الشاعر يستعمل كلمة «سنائه» بدلا من ضياء ، مع أن السناءَ هو المجد ، والتعبير به هنا قلق ، وكذلك كلمة « تحيطنا » لا تستريح لها الصورة الحانية التى تلف المبحرين بشعاع الأَمل ، وتفتح لهم أَحضانها ، وتحوطهم بها ، فإن كلمة « تحيط » تستعمل كثيراً فى الهلاك ، وهو لا يراد هنا ، فالله تعالى يقول « وأُحيط بثمره »ويقول عن النار : « أَحاط بهم سرادقها » ولعلها خطأٌ مطبعى ، فإن كلمة تحوط لا تخل بالوزن ، وهى أَولى .

وإذا مضينا مع رحلة الجراح ، نجد « شفاه الظلام » تمطر حقداً ملتهب الدماءِ ، وهذه الشفاه تمتص السعد

والهناءَ من نفس الشاعر ، وتحوّل حياته إلى رثاءٍ وازدراءٍ ، حتى ليشعر أنه غريب يقتات الوهم في عمر شقي أبيّ ، فهو ضائع اليوم خجل المستقبل ، فهو يقــول :

وشفــاه الظلام تمطــر حقـــداً
مسعَــرَ الحرفِ لاهباً دمـــويا
تلعــق السعد والهنــاءَ بنفسي
وتُحيل الحيــاة عيشــاً زريّا
أَنا في هــذه الحيــاة غريــب
زادُه الوهمُ عاش عمــراً شقيــا
إن يومي يضيــع مني كأَمــسي
وغدي في الغيــوب يرنو حييًّا

ولكنه هل يستسلم لهذه المآسي التي تسد دربه ، والأَشواك التي تنتشر في طريقه ، إنه سيسير إلى الصباح في عزم فتيّ قوي ، يسخر بالظلام ، ولا يعبأُ بالأَشواق ، فهو يقول :

رغم كل الأشواك سار حثيثـــاً
نحو آماله يســـوق المطيّـا
هازئاً بالظـــلام غير مبـالٍ
يرقب الفجـر والصباح الوضيّا

ولكنه يعود فيضطرب ، فمع الرجاءِ فى ارتقاب الفجر والصباح الذي يري فى ضوئه إشراقة الأمل ، يقول : إننى سأوالى سيري على جثة الصباح لأن هذا الصباح شقىّ ، يحمل المتاعب والمصاعب إليه ، فهو يقول :

وعلى جثـة الصبـاح يـوالى
سيره ، لا يريد صبحـا شقيّـا

وكأنه ينظر إلى امريء القيس فى قوله :
ألا أيها الليل الطويل ألا انجـلِ
بصبح وما الأصبـاح منك بأمثلِ

ولكن الشاعر يرجع مرة أخري فيستسلم لشفاه الظلام ، ويدعوها أن تزيد فى صراخها ، وأن تملأ

الليل عويلا وويلا ، حتى يتحطم إحساسه الباقى على هذه الصرخات ، فإنه قد دفن الآمال فى ليل النحس ، فلم يعد يأمل فى هذه الحياة ، بعد أن استوى فى فمه الحلو والمر ، بل إن طعامها المرّ قد أصبح قسيم عيشه ، وملء أقواته وأوقاته ، فهو يقول :

يا شفاه الظلام زيدي صـــراخا
وعويـــلا وحطـــمى باقيـــــا
قد دفنت الآمال فى ليل نحـــسى
لم أعد فى الحيـــاة آمل شـــيّا
أطعمينى بما تشـــائين . . . إنى
قد تعـــودت طعمـــك الحنظليا

ولا شك أن الشاعر يتحدث بلسان اللاجئين ، الذين طالت حياتهم فى ظلام اليأس ، ومرارةالحرمان ، حتى أصبحت الجراحات النفسية أقسى من الجراح الحسية ، ولكن هذه النغمة اليائسة لا تشد العزم ولا تهد الظلم ، ولكنها تنفذ المعاول فى النفوس

لتمزيقها وتحطيمها . وكان أولى بالشاعر أن يرسم على الشفاه بسمة أمل وشعاع رجاءٍ وفداءٍ ، للقضاءِ على من نسج الظلام ومزق الخيام .

وبعد أن يمضى الشاعر فى « أطلال كرامة » فيرثى عزة الوطن المباحة ، وكرامته الطعينة الضائعة ، ينتقل إلى « غناءِ الجرح » وهى القصيدة التى سمى بها ديوانه فيناجى أخا الجراح وأخا الكفاح ، حتى يتقدم قومه للقضاءِ على الحاقدين الغاصبين ، واطلاع أشعة النصر من بين قطرات الدماءِ ، فيقول :

يا أخا الجرح طال سهدي وشوقى
والأسى فى الفؤاد يمعن كيا
وسدّى تُربط الضمادات إن لم
يكن الجرح حافزاً أبديا
مسعرا للكفاح .. رمزاً لثأر
مطعم النصر حاقداً عنجهيا

ثم يمضى فى طريق الجراح والسلاح إلى رحلة

الموت والفداءِ ، حتى ترجع القدس حرة عربية ، فتمتح الحياة فى الحقول ، وتزدهى فى السنابل ، وتشمخ برأْسها كالعروس ليلة زفافها ، ويعود اخضرار العزة للنفوس والرءُوس . فيقول :

يا أَخا الجرح قد مللت الفيافى
وسئمت الأَشواك تنخر فيّا

فاطّرِحْ كل مركب ليس يجدي
وإِلى الموت يا رفيقى هيا

ولنودع بشاشة العيش حتى
يرجع القدس موطناً عربيا

عندما تزدهى السنابل فى الحقل
ازدهاءًا مجنّحا يعربيا

فى شموخ بقمحها تتباهى
كعروس لزوجها تتهيّا

فى اخضرارٍ زمردي أَنيق
وقد اخضلّ رأْسهن نديا

إلى أن يقول :

والتزم دوحـة الحيـاة ونادِ
يا فلسطين . . ها أنا عدت حيّا

وإذا أعيا الشاعر الجرح الصريح لجأ إلى الجرح الرمزي ، ليتحدث عن صديقته حديث العاشق المشتاق للحسن المتكامل المتواصل ، ثم يستمر فى رحلة حواره مع نفسه حول الفراق واللوم والأسى ، لخلو حياته منها ، ثم يناجيها بجرحه ، ليتحدث لها عن شوقه وتمزقه ، حتى يصل من ذلك إلى اللاجىءِ الفلسطينى ، الذي لفظته أفواه النقم ، فمضى حزيناً تائهاً ينتظر هيئة الأمم أن تحل قضيته بالتلويح أو التصريح ، وهنا يختفى الشاعر وراء اللاجىءِ ليتحدث بكل صراحته عن حبه العنيف العفيف فيقول :

أختـاه ما جـدوى الأسى
والجـرح فى الصـدر انكتم

فى الليل أمضغ وحدتى
أبغى المنام ، ولم أنم
عبث السهاد بناظري
عبثَ الوليد بعقد أم
أو كالدروب بلاجئ
لفظته أفواه النقم
لاكته آفاق المنى
وتقيأته ربا الحرم
فمضى حزينا تائها
يقتات تصريح الأمم

ثم بعد أن ينتهى الشاعر من موقف « الضياع » إلى « حصاد الشوك » ، « ونشار النعش » يلتقى « بأمسية العيد » حيث يذكر لقاءً سعيداً مضيئاً فى دار شيخ فاضل ، هو فضيلة الشيخ محمد الحافظ القاضى بمحكمة المدينة المنورة ، هذا الشيخ قد زخرت جلساته بالقيم الروحية ، وحفلت بروائع الأدب ، التى تبهج وتؤنس ،

حيث أقام العلم فى دار الشيخ ، وتواضع القلم أمام أدبه الوافر الزاهر ، أما الشعر فقد فاض وأجاد بأنغامه الحلوة ، التى تتحدث عن التاريخ المجيد ، والإسلام العزيز الكريم ، فهو يقول :

العيـــد حيّا وابتســـم «فاهنأْ بعيدك ياحرمْ»

إلى أن يقول :

فى دار شيـــخ فاضل قد قام نحوك واحترم
واحرص على جلســـاته زخرت بمختلف القيم
جلسات أنسى دافـــق يعيا بما تحوي القلم
العلم ألقى رحـــــله برحابها وجثـــا الكلم
والشعر فى جنباتها ينداح فى حلو النغم
تروي لنـــا أبيـــاته تاريخنا العربى الأشم
ومواقع الإســـلام فى بدرٍ ، تجلجل فى شمم

ثم يمضى فى عبارات وعظية ، ليتحدث عن جمال العيد حين يذكر بالرحم ، ويجمع الإخوة فى الله ،

ويجدد فى القلوب دين سيد الأَنبياءِ ، الذي يسكن الحرم ، فإن دين النبى محمد عطرٌ كل فم ، ونور كل روح ، فيقول :

ما أَجمل الأَعياد إن هِى ذكّرتنـــا بالرحم
إن جمّعتنا إِخـــوة فى الله ، فى ظل السَّلَم
إن أَلهمتنا رشـــدنا أَو ثبّتت منا القـــدم
إن جدّدت بقلوبنـــا دينَ الذي قَطَنَ الحرم

ثم يتحدث فى توجيه عام ، وفى صوت قوي مدوٍّ قائلا :

دين النبيّ محمـــد تعطيـــرة فى كل فم

ثم ينتقل الشاعر إلى حديث قلبه ، حيث نلتقى به وهو يتحدث « إلى مسافرة » حديثاً هادئاً دافئاً ، ليرمز بهذا الحديث إلى القضية العربية فى تعثرها وتدهورها ، وقد احتدم القلب واضطرم ، وهو يهتف بها أَن تبقى ، وأَن تدع السفر ، ولكن طائرة الحياة لا بد ماضية فى طريقها ، وإن أَبقت أَحزاناً وآهات ،

وغادرتنا نعيش بغير غاية ، تتحرك فى داخلها نفوسنا كأنها الأَمل الذاوي المتهاوي . فأَصبحت لا ترانا غير بقايا بطولات ، وأَطلال جهاد وأَمجاد ، فهو يقول مخاطباً الطيارة التى أَقلعت بحبيبته :

وبعـد هنيهـة طارت
بك الطيـارة الولهى..
كما يفترس الصقـر
على الأَفنـان عصفوراً
بريئاً طيب القلب . .
هنـاك لعنت أُوربا
وما صنعت مصانعها
فقد غرست
سهام الهم فى قلبى
وأَضنتـنى بما أَخذت
على الطيارة النشوى

كما زرعت
بلادي كلها حقـــداً
وآهاتٍ وأحـــــزاناً
فعشنـــا فى تفـــاهات
وســـرنا دون غايـــات
بقـــايا من بطـــولات

وهذه الأبيات من شعر التفعيلة ، ولكن بحر الوافر يسيطر عليها كما ترى .

وإذا غادرنا قصيدة « يأس » بما فيها من ظلام وقتام ، لنلتقى بـ « رحلة الضباب » حيث تتفتح براعم الربيع فى آذار ، وجدنا الشاعر يناجى برعم الحياة ، ويدعوه أن يحطم قيود الجوع ، وأن يعطر الحياة بعبير الفرحة ، وأن يضع حدودا للشقاءِ والعذاب ، فى هذا الخطو اللهيف ، الضائع فى التراب ، فإن رحلة الضباب قد ملأت نفوسنا بالكلل والملل ، ولا يخفى ما يرمز إليه مما يعوق تفتح حياته ، ويغلف خطواته وحياته

بما يخنق أَصواءها ، وينثر الأَشواك والعثرات أَمام تطلعاته وجهوده ، وقد اختار لهذه الرحلة إطار التفعيلة ، وكأَنما يقول لمن يقفون فى سبيله : هاأنذا أَنطاق فيما أَقول من غير قيود وحدود وسدود . ومع هذا الاختيار للتفعيلة المنطلقة ، فإن بحر الرجز يفرض نفسه عليه . فهو يقول :

يا برعم الحياة فى آذار . !
حطم قيود الجوع والضباب
عطّر حياتنا بنفحة العبير
ببهجة الطيوب والعطور
وضع حدوداً للشقاءِ . . . للعذاب
لخطونا المطويّ فى التراب
فقد مللنا رحلة الضباب

ولنمض من « عيون الفجر » فى يافا والجليل ، إلى « نداءِ المجد » فى المسجد الأَقصى ، على أَنغام

« الأنشودة المبحوحة » حتى نصل إلى « أغنيات تائهة » مع « عيد الأحزان » و « ألحان الخريف » و « حزمة نور من حطين » إلى « النجوى الحالمة » حيث نحس همس الأنغام وقد تعانق مع عبير الندى ، وهو يمر بقطراته الشفيفة على الأقحوان ، ليذيع أعطارده وأسراره . إن هذه النجوى تنتشر أضوءً متهللة متلألئة لتصنع عرس لقاءِ المحبين . وقد خيل للشاعر أن الحياة تحتفل به فأقامت له الغانيات والمغنيات ، وقد صنعن ربيعاً من الحب ، قد انتشر على أفواه الحسناوات بالأفراح والبسمات . وقد أصبح الحب لغة العيون والنبضات ، فالحياة كلها حب يضيءُ جميع القلوب ، فإن النجاوى بين المحبين قد مشت بأنوارها إلى الحنايا ، فغمرتها بأنوار الحنان ، ولم تبقِ بينها خيالا لألم أو شجن ، فهو يقول :

أي نجوي ترددت في كيـان

كرفيف النـدي على الأقحوان

كالضياءِ الطروب فى ليل عرس
عبقـريّ الأَنغـام والأَلحـان

راحت الغانيـات فى جانبيـه
تنشـر الحب للربيـع الحانى

والنجـاوي إذا أَضاءت بقلب
كانت الماحيـات للأَشجـان

ثم ماذا بعد هذه النجاوي التى أترعت قلب الشاعر بالتفاؤل وحب الحياة فى لقاء القلوب الحانية التى تنشر الحب ، فتفتّح الربيع بين النفوس المنطلقة لفجر جديد سعيد ، ولهذا يقول للقلب الذي ارتبطت به حياته ونغماته ، إنه قد عطر وجوده وملأه بالأزهار والازدهار فيقول :

أنت أترعت مهجـتى بحنيـن
عبقٍ بالشـذا ونفـح المجـانى

أنتِ حبّبْتِ لى الحيـاة وكانت
لا تساوي بنـاظري أيّ شـان

رحم اللهُ ساعـة جمعتنـــا
قد تقضّــت كلحظــة من ثوان

يا لها جنـــة دخلت إليهـا
تهت فى سحرها وذاب كيانى

والصورة جميلة حلوة ملأى بالحنين المعطر ، واللقاءِ المشرق المغدق ، الذي جعله يحب الحياة بما أفاض على روحه من متعة ونعيم ، مع أن حياته قبل هذا اللقاءِ كانت خالية خاوية ، لا يبتسم فيها شعاع أمل أو رجاءٍ ، ثم يقول : ولكن هذه الأوقات التى جمعتنا مضت سريعة خاطفة كالبرق ، فلم تكن فى عمر قلب الشاعر غير لحظة من ثوان ، وكأنما أرته الجنة ، وما كاد يدخل إليها مفتوناً بسحرها حتى وجد نفسه بعيداً عنها ، ينتهب نفسه الفراق والأشواق ، فأخذ يذكرها ويتأثر على فقدها ، ولكنه لم يصادف التوفيق حين عبر عن رعايته لهذه اللحظات ووفائه

لها بقوله : « رحم الله » وهى عبارة تشعر بكآبة وغرابة لا تناسب الموقف الجميل فى لقاء المحبين ، وإنما تناسب الوداع الأخير ، ولو قال : « يا رعى الله ساعة جمعتنا » بدلا من « رحم الله » لكان أوقع وأمتع ، فقد عبر الشاعر إبراهيم ناجى فى قصيدة الأطلال بمثل هذه العبارة حيث قال فى مطلعها :

يا فؤادي رحم الله الهـــــوى

كان صرحاً من خيـــــال فهوي

ومع أن القصيدة كانت حديثاً عن أطلال الحب ، وكانت عبارة « رحم الله » تناسبها ، فإنها استبدلت هكذا :

يا فؤادي لا تســـل أين الهوى

كان صرحاً من خيـــــال فهوى

فكانت أجمل وأكمل أنغاماً وإنشاداً ، وأحسّ المتلقى أنها أروع وأبدع فى ، تعانقها مع الألحان وحلاوة

الأداءِ . ولو صنع ذلك شاعرنا لكان أفضل فى حلاوة الذكرى ، وفرحة الارتقاب للقاءٍ جديد يحلو ويطول .

وإذا التقينا بقصيدته « حنين المجداف » وهى من شعر التفعيلة كسابقتها ، فإننا نرى لوناً آخر من المعايشة الوجدانية . فالشاعر تشدّه الغربة من المجتمع ، حتى ليحس بالوحدة والانفراد ، ويحاول أن يبحر فى بحر وجدانه وحرمانه ، فيقوم بهذه السياحة فى ليل غربته الطويل ، حيث المجداف الملتصق بالغبار ، يصحبه ليصنع له همس الحنين فى لقائه على الموج ، وهو يحاول أن يتحسس المجداف بحاسة الشم ، حيث يجد فيه رائحة وطنه . . رائحة زهر البشام ، وهو يقتات فى رحلته من أشواقه وأحلامه ، ويناجى الشطآن بأفراحه وآماله ، حيث تشرق كالحقول المخضرة ، التى ينظر إليها بالمنى المتفتحة فى قلبه ، ولكن أين هذه المنى . ؟ إنها بعيدة ، تبدو كالسراب الخادع فى اليوم القائظ ، فهو يقول :

وحـدي سأُبحر فى الظلام
أتحسّس المجداف فى كف القتام
وأشم من عذباته زهـر البشام
أقتات من شوقى وأحلامى الكسيحـة
وأُغازل الشطـآن بالنجوى الجريحة
تلك الشـواطئُ مشرقة
كثمار حقـل مونقـة
كمنًى بقلبى مورقـة
لكنها أبـداً بعيـدة
كسراب يوم قائظ أبداً بعيده

ثم يمضى فى الرحلة مع بحر وجدانه ، فينادي مياه البحار ، ويسألها عن اللآلىءِ والمحار ، وقد أحس بالتيه داخل نفسه ، فصرخ كالمريض بقلبه ، يبحث عن النهار ، وكأنما ضاق صدره أن يحتمل قلبه ، فأحس به ، فمزق الصدار ليوسع لقلبه السجين شيئاً من البراح .

ومن هنا بدأ يرمز لهؤلاء الذين يروعون قلبه بأنهم قراصنة ، يكونون عصابة سطو على الأحاسيس ، مثل لصوص البحار الذين يسطون على ركاب السفن فيسرقون متاعهم وصفاءهم . ولكن هل ينجيه من الأسر ويخلصه منه : أن يلعن الآسرين . ؟ وهل ينقذه من اللصوص صراخه فى وجه السارقين الذين يدخلون إلى عواطفه وإلهامه فيطفئون شعلة الموهبة فى نفسه ، ويسدون عليه دروب رضائه وهنائه . إن ذلك لن يجديه شيئاً ، فهو يقول :

يا عمـق أمـواه البحار ..!
أين اللآلئ والمحـار .؟
قد تهت . . أنهكنى الدّوار
وصرخت كالمفؤود ألتمس النهار
مزقت من ألمى الصِّدار
ولعنت قرصنـة البحار
واللعن لا يُطفى الأوار

حتى إذا استدرجه الموج ، وأصبح فى وسط البحر ، وجد عيون تمساح حاقد ، يتربصه بمجدافه العنيد ، وهذا التمساح يذرف الدموع الخادعة ليظفر بالفريسة ، إن هذا التمساح يشبه شبان بلاده ، وهم يخدعون العيون بالخشوع والمسابح التى يظهرون فى مشاهدها كالعابدين ، مع أنهم يمضغون العلك ، ويشربون السيجار ، ويطيلون الشعر الخليع الوضيع ، وكم غيرهم من تماسيح . . ! ولكن هل مثل هذه المظاهر والمناظر تنطلى على ، أو تخدع عينىَّ بزيفها وانحرافها . ؟ إن مثل هذا الدجل الرقيع لا يغشنى ، بل إنه يغرينى بمحاربته ومطاردته والقضاءِ عليه . والصورة جميلة ، مرسومة بدقة ، لولا أن التمســاح الذي يرمز بــه للمخادعين ، لا يعيش فى البحار المالحة ، وإنما يعيش فى الأنهار العذبة ، وربما قصد الشاعر صفة التمساح لا حياته ، وإن كانت الرحلة فى البحار ، فهو يقول :

وعيـــون تمساح حقـــود
ظمأى لمجـــدافى العنيد
رقت وأغرتها الدمـــوع
كمسابح الشبان يجمعها الخشوع
بالعلك والسيجار والشعر الخليع
ما أبرع الدجل الوضيـــع ..!

ثم يمضى الشاعر مضطرباً مع نفسه وسط البحار ، فبعد أن قال : إنه يبحر وحده أخذ يقول : بحارتى ماتوا بأحذية الفرار ، مثل الفئران بمصيدة الذل ، انتشروا صرعى كالرذاذ ، أو الأوراق المتطايرة ، وكانت جموع الغربان تحوّم على شراع سفينته ، وكان نعيب الغربان ينعى الأمل الضائع بين الصراع اللهيف المخيف ، وكانت الغربان تشبه مظلة جوية بحزيران ، الذي كان مقبرة للقوب بحنانها وأمانها ، وقد مات الظل فى هذا الشهر ، لأنه كان ظلا من هوان الهزيمة ، وكانت أشعة الشمس كالمشانق للجنود الفارين تحت وهجها وسعيرها .

ومع هذا الضياع فأنا لن أستسلم للتمزق والانسحاق ، سأظل أشق الموج العاتى بإصراري واصطباري ، وتزيد فيّ الصعاب عزماً واقداماً ، فلا بد أن أمضى كأجدادي ، حتى أرسو على شط وطنى الحر العزيز ، لأحرس أرضه وترابه ، لأن هذا التراب تراب أهلى ، يحمل جهادهم وامتدادهم ، فهو يقول :

بحارتى ماتوا بأحذية الفرار
ماتوا كفئران بمصيدة الصغار

إلى أن يقول :

سأظل أمخر فى العباب
بشراعى الغرثان أخترق الضباب
وتزيد من عزمى الصعاب
وعلى فمى يلقى العذاب
أنشودة صممتها
من مهجتى وعشقتها :

أنا من تراب

وخلقت من ذاك التراب

الثائر الموتور فى الشط الخراب

وأبى وجـدي والصحاب

كانوا يحبـون التراب

لا عز لى إن لم أمت

من أجل هذاك التراب . !

ثم يمضي الشاعر فى قصيدة « النزيف » للسلاح والليـل واللهيب ، إلى مزيد من نزيف الدم على ربى لبنان ، حيث يشنق التاريخ ، الذي كتبته الأمجاد بالدماءِ ، وبعد أن يتحدث عن المؤامرات الدنيئة الموبوءة ، التى يصنعها تجار الزعامات وهواة الخطب والأحفال ليكسبوا شهرة رخيصة ، على حساب العروبة الذبيحة . بعد هذا ينتقل الشاعر إلى « تل الزعتر » تلك المأساة التى انتقلت حرابها من الميدان إلى القلوب ، فما زالت تنزف بها ، وهى ترى الأيدي

المتحدرة من هولاكو ، والممتدة إلى هتلر ، تسفك الدماء وتعبث بالمقدرات ، إنها أيدي أولئك السفاكين ، من مصاصى الدماءِ : دماء الشهداءِ والشرفاءِ ، ولكن هل انتهت هذه الجراح . ؟ إن الشاعر يقول :

وجراحك تزهــو مورقــة
فى الشاطىءِ كالعشب الأخضر
ويغنّى الكــون برمّتــــــــه
بصمـــــودك يا تــل الزعتر

وهناك «سؤال وجواب حول الصراع» ، وما زال السؤال يصرخ بغير جواب ، لأن الذين سيجيبون قد أصبحوا فى اللحود ، فهو يقول :

ولتسألى بيروت عن دمائنا
فى كل شارع وكل مُنْحنَى
فى كل تلة كان لنـــا لقاءْ
يروي لكل الناس قصة الإباءْ

وضاعت الـدماءْ

وزُلـزل اللقـاءُ

وماتت الأَصـداءْ

وها تصاعدت فى الأُفق من جديد

أَصواتنا تستصرخ الوجود

فهل يفيد يا حبيبتى معرفة الجواب . ؟

ونحن فى اللحـود . ؟

وينتهى ديوان « غناءُ الجرح » بموقف بطولى كبير ، تمثله قصيدة « الوداع الدامى » بحركة ذلك الحوار العنيف مع الجهاد والاستشهاد ، على أَرض المعاد ، حيث تلتقى مواكب المجاهدين . على هذا النغم المدوّي بين أَرجاءِ الوجود :

إنا نجاهد فى سبيل الله

الله أَكبر يا بلادي كبّري

والكبرياءُ جميعها لله

وكان الأولى أن يوضع الشطر « الله أكبر يا بلادي كبّري » بين قوسين ، فإنه مطلع نشيد معروف ، وتكملة البيت كلآتى :

الله أكبر يا بلادي كبّـــري
وخـــذي بناصية المغير ودمّري

وهو من الأناشيد التى أدت دورها فى معركة العروبة أثناء العدوان الثلاثى على مصر ، ولعل النشيد الذي معنا امتداد لذلك ، فالمعركة العربية متواصلة النشيد والجهود .

وبعد : فإن شعر ديوان « غناءُ الجرح » قد أثبت شاعرية متفوقة لصاحبه ، فإن مضامين الشعر إنسانية إيمانية ، تتخطى بأهدافها الحدود والسدود ، وتدعو كل ناثر أو شاعر فى الوجود أن يشرع قلمه ونغمه دفاعاً عن الحق وانتصاراً لتحرير الإنسان .

كما أن شعر هذا الديوان يحدد ملامح شخصية صاحبه ، ويقول فى تعبير أخاذ نفاذ : إن هذا شاعراً يتألق فى تعبيره عن انفعاله وبيئته وثقافته ، بل حتى

عن عمله فى حقل التعليم ، حيث ينعى على الشباب مظهره المتميع المفكك فى مضغ العلك وشرب السيجار وإطالة الشعر ، وتلك عبارات تشير إلى أن صاحبها يعمل فى حقل التعليم ، ويأخذ أبناءه بالتقويم ، ويحملهم على التأدب بأدب الإسلام ، والتخلق بأخلاق الرواد والقواد ، ممن تحفل بهم الأمجاد الإسلامية العربية . وإذا تتبعنا كل قصيدة من قصائد « غناءُ الجرح » وجدناها بنْية حية متكاملة فى انفعالاتها ونبضاتها ، فليست متحدة فى موضوعها - كما يقول العقاد - فقط . بل هى وحدات عضوية متلاحمة تتعانق فى إشراقها وتدفقها وتفوقها ، وفى إبداعها وامتاعها أيضاً .

تحية للشاعر الكبير الأستاذ محمد العيد الخطراوي مع تمنياتنا له بمزيد من الجديد والتجديد فى الشعر بمشيئة الله وتوفيقه ،،،

عبدالحميد ربيع

المحتــوى